المحبة والشوق

و

الأنس والرضا

تأليف

أبي حامد محمد بن محمد الغزالي

(٤٥٠ – ٥٠٥ هـ)

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
محمود نصار الحلبي وشركاه، خلفاء

الطبعة الأولى

١٣٨٠ هـ = ١٩٦١ م

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرته ، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجلى لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرقت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبحات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنه جلاله حتى تاهت فى بيداء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدهش ما غبّر فى وجه العقل وبصيرته ، وكلما همت بالانصراف آيسة نوديت من سرادقات الجمال : صبرا أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت بين الردّ والقبول ، والصد والوصول ، غرقى فى بحر معرفته ، ومحترقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكمال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمته ، وقادة الحق وأزمته ، وسلم كثيرا .

أما بعد : فإن المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ، ولا قبل المحبة مقام إلا هو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد وغيرها ، وسائر المقامات إن عزّ وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها . وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض العلماء إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى . وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ، ولما أنكروا

المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ولا بد من كشف الغطاء عن هذا الأمر .

ونحن نذكر فى هذا الكتاب بيان شواهد الشرع فى المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ، ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثم بيان سبب زيادة لذة النظر فى الآخرة على المعرفة فى الدنيا ، ثم بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى ، ثم بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب ، ثم بيان السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، ثم بيان معنى الشوق ، ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ، ثم القول فى علامات محبة العبد لله تعالى ، ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثم بيان معنى الانبساط فى الأنس ، ثم القول فى معنى الرضا وبيان فضيلته ، ثم بيان حقيقته ، ثم بيان أن الدعاء وكراهة المعاصى لا تناقضه . وكذا الفرار من المعاصى ، ثم بيان حكايات وكلمات للمحبين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

بيان شواهد الشرع

فى حب العبد لله تعالى

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض ، وكيف يفرض مالا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلا بد وأن يتقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ، ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ(١)) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ(٢)) وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه ، وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من

(١) سورة المائدة ، آية ٥٤ (٢) سورة البقرة ، آية ١٦٥ .

شرط الإيمان فى أخبار كثيرة ، إذ قال أبو رزين العقيلى : « يَا رَسُولَ اللهِ : مَا الْإِيمَانُ ؟ قَالَ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِمَّا سِوَاهُمَا(١) » وفى حديث آخر : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا(٢) » وفى حديث آخر : « لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٣) » وفى رواية : « مِنْ نَفْسِهِ » كيف وقد قال تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ(٤)) الآية . وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار ، وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمحبة فقال : « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللهِ إِيَّايَ(٥) » ويروى : « أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُحِبُّكَ ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : اسْتَعِدَّ لِلْفَقْرِ ، فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّ اللهَ تَعَالَى ، فَقَالَ : اسْتَعِدَّ لِلْبَلَاءِ(٦) » وعن عمر رضى الله عنه قال : « نَظَرَ النَّبِيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ مُقْبِلاً وَعَلَيْهِ إِهَابُ كَبْشٍ قَدْ تَنَطَّقَ بِهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم انْظُرُوا إِلَى هٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَغْذُوَانِهِ

(١) أخرجه أحمد بزيادة فى أوله .

(٢) متفق عليه من حديث أنس بلفظ «لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله» وذكره بزيادة .

(٣) متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله « ومن نفسه » وقال البخارى « من والده وولده » وله من حديث عبد الله بن هشام « قال عمر : يارسول الله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى ، فقال : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلى من نفسى ، فقال : الآن ياعمر » .

(٤) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

(٥) الترمذى من حديث ابن عباس ، وقال حسن غريب .

(٦) الترمذى من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ « فأعد للفقر تجفافا » دون آخر الحديث ، وقال حسن غريب .

بِأَطْيَبِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، فَدَعَاهُ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى مَا تَرَوْنَ(١) » وفى الخبر المشهور : « أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ لِمَلَكِ المَوْتِ إِذْ جَاءَهُ لِقَبْضِ رُوحِهِ : هَلْ رَأَيْتَ خَلِيلاً يُمِيتُ خَلِيلَهُ ؟ فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ : هَلْ رَأَيْتَ مُحِباً يَكْرَهُ لِقَاءَ حَبِيبِهِ ؟ فَقَالَ : يَا مَلَكَ المَوْتِ الآنَ فَاقْبِضْ(٢) » وهذا لايجده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم فى دعائه : « اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ ، وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ ، وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ المَاءِ الْبَارِدِ » وجاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « يَا رَسُولَ اللهِ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ فقَالَ : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَثِيرَ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ إِلاَّ أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم : المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ(٣) » قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشىء بعد الإسلام فرحهم بذلك .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : من ذاق من خالص محبة الله تعالى شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر .

وقال الحسن : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لايلهو حتى يغفل ، فإذا تفكر حزن .

وقال أبو سليمان الدارانى : إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدنيا ؟

ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن

(١) أبو نعيم فى الحلية بإسناد حسن . (٢) لم أجد له أصلا .
(٣) متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبى موسى وابن مسعود بنحوه .

يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين ، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا ، فقال: ما الذى بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا الشوق إلى الجنة ، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم المرائى من النور ، فقال : ما الذى بلغ بكم ما أرى؟ قالوا نحب الله عز وجل ، فقال : أنتم المقربون أنتم المقربون أنتم المقربون .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت برجل قائم فى الثلج ، فقلت : أما تجد البرد ؟ فقال من شغله حب الله لم يجد البرد .

وعن سرى السقطى : تدعى الأمم يوم القيامة بأنبيائها عليهم السلام، فيقال : يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد ، غير المحبين لله تعالى فإنهم ينادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه ، فتكاد قلوبهم تنخلع فرحا .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة وهى تحسره فى الدنيا وتروُّحه فى الآخرة .

وقال يحيى بن معاذ : عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه ؟ وحبه يدهش العقول فكيف وده ؟ ووده ينسى ما دونه فكيف لطفه ؟

وفى بعض الكتب : عبدى أنا وحقك لك محب فبحقى عليك كن لى محبا .

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال يحيى بن معاذ : إلهى إنى مقيم بفنائك مشغول بثنائك ، صغيرا أخذتنى إليك وسربلتنى بمعرفتك ، وأمكنتنى من لطفك ، ونقلتنى فى الأحوال ، وقلبتنى فى الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا وحبا ، تسقينى من حياضك ، وتهملنى فى رياضك ، ملازما

لأمرك ومشغوفا بقولك ، ولما طرّ شاربى ولاح طائرى فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا ، فلى ما بقيت حولك دندنة ، وبالضراعة إليك همهمة ، لأنى محب ، وكل محب بحبيبه مشغوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

وقد ورد فى حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل فى حصر حاصر وذلك أمر ظاهر ، وإنما الغموض فى تحقيق معناه فلنشتغل به .

بيان حقيقة المحبة وأسبابها

وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة فى نفسها ، ثم معرفة شروطها وأسبابها ثم النظر بعد ذلك فى تحقيق معناها فى حق الله تعالى .

فأول ما ينبغى أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا بعد معرفة وإدراك ، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ، ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جماد ، بل هو من خاصية الحى المدرك ، ثم المدركات فى انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه ، وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه ، وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلام وإلذاذ ، فكل ما فى إدراكه لذة وراحة فهو محبوب عند المدرك ، وما فى إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك ، وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف بكونه محبوبا ولا مكروها ، فإذن كل لذيذ محبوب عند الملتذ به ، ومعنى كونه محبوبا أن فى الطبع ميلا إليه ، ومعنى كونه مبغوضا أن فى الطبع نفرة عنه ، فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشىء الملذ ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمى عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، فإذا قوى سمى مقتا ، فهذا أصل فى حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته .

الأصل الثانى

أن الحب لما كان تابعا للإدراك والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس ، فلكل حاسة إدراك لنوع من المدركات ، ولكل واحد منها لذة فى بعض المدركات ، وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم ؛ فلذة العين فى الإبصار ، وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة المستلذة ، ولذة الأذن فى النغمات الطيبة الموزونة ، ولذة الشم فى الروائح الطيبة ، ولذة الذوق فى الطعوم ، ولذة اللمس فى اللين والنعومة .

ولما كانت هذه المدركات بالحواس ملذة كانت محبوبة : أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : الطِّيبُ وَالنِّسَاءُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ[1] » ؛ فسمى الطيب محبوبا ومعلوم أنه لاحظ للعين والسمع فيه بل للشم فقط ، وسمى النساء محبوبات ولا حظّ فيهن إلا للبصر واللمس دون الشم والذوق والسمع ، وسمى الصلاة قرة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مظنته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب . ولذات الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان ، فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل فى الخيال فلا يحب ، فإذن قد بطلت خاصية الإنسان وما تميز به من الحس السادس ، الذى يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحة فيه ، وهيهات ؛ فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكا من العين ، وجمال المعانى المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التى تجلّ عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل

(١) النسائى من حديث أنس دون قوله « ثلاث » وقد تقدم .

الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى مافى إدراكه لذة كما سيأتى تفصيله ، فلا ينكر إذن حب الله تعالى إلا من قعد به القصور فى درجة البهائم ، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا .

الأصل الثالث

أن الإنسان لايخفى أنه يحب نفسه ، ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه ، وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لا لأجل نفسه ، هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لايتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته مالم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته . والحق أن ذلك متصوَّر وموجود ، فلنبين أسباب المحبة وأقسامها ؛ وبيانه أن المحبوب الأول عند كل حى نفسه وذاته ؛ ومعنى حبه لنفسه أن فى طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه ، لأن المحبوب بالطبع هو الملائم للمحب ، وأى شىء أتم ملاءمة من نفسه ودوام وجوده ؟ وأى شىء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه ؟ فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل ، لالمجرد مايخافه بعد الموت ، ولا لمجرد الحذر من سكرات الموت ، بل لو اختُطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ، ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم فى الحياة ؛ ومهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم ، بل لأن فيه زوال البلاء ؛ فالهلاك والعدم ممقوت ، ودوام الوجود محبوب ؛ وكما أن دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضا محبوب ، لأن الناقص فاقد للكمال ، والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود وهو هلاك بالنسبة إليه ، والهلاك والعدم ممقوت فى الصفات . وكمال الوجود ، كما أنه ممقوت فى أصل الذات ، ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب ، وهذه غريزة فى الطباع بحكم سنة الله تعالى (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلا[1]) فإذن المحبوب

(١) سورة الأحزاب ، آية ٦٢ .

الأول للانسان ذاته ، ثم سلامة أعضائه ، ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه ؛ فالأعضاء محبوبة ، وسلامتها مطلوبة ، لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها ، والمال محبوب لأنه أيضا آلة فى دوام الوجود وكماله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكماله بها ، حتى إنه ليحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتحمل المشاقّ لأجله ، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون فى بقاء نسله نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما عجز عن الطمع فى بقاء نفسه أبدا . نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده ، لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه المحقق ؛ وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه ، فإنه يرى نفسه كثيرا بهم ، قويا بسببهم ، متجملا بكمالهم ، فإن العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل الإنسان، وكمال الوجود ودوامه محبوب بالطبع لا محالة ؛ فإذن المحبوب الأول عند كل حى ذاته وكمال ذاته ، ودوام ذلك كله . والمكروه عنده ضد ذلك ، فهذا هو أول الأسباب .

السبب الثانى : الإحسان ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللّهمّ لا تَجْعَلْ لِفَاجِرٍ عَلَيَّ يَدًا فَيُحِبَّهُ قَلْبِي[1] » إشارة إلى أن حب القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه ، وهو جبلة وفطرة لاسبيل إلى تغييرها ، وبهذا السبب قد يحب الإنسان الأجنبى الذى لاقرابة بينه وبينه ولا علاقة ، وهذا إذا حقِّق رجع إلى السبب الأول ، فإن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود ، وحصول الحظوظ التى بها يتهيأ الوجود ، إلا أن الفرق أن أعضاء الإنسان محبوبة ؛ لأن بها

(١) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع ، وقد تقدم .

كمال وجوده وهى عين الكمال المطلوب . فأما المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذى يكون سببا فى دوام صحة الأعضاء ، ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذى هو سبب الصحة ، إذ الصحة مطلوبة لذاتها ، والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة ، وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ، ولكن العلم محبوب لذاته ، والأستاذ محبوب لكونه سبب العلم المحبوب ، وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير محبوبة ، لكن الطعام محبوب لذاته ، والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام ، فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة ، وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الإنسان نفسه ، فكل من أحب المحسن لإحسانه فما أحب ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه ، وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ، ولو نقص نقص الحب ، ولو زاد زاد ، ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث: أن يحب الشيء لذاته لا لحظ ينال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقى البالغ الذى يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن ، فإن كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك لعين الجمال، لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظنن أن حب الصور الجميلة لا يتصوّر إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة لأجلها ، وإدراك نفس الجمال أيضا لذيذ فيجوز أن يكون محبوبا لذاته ، وكيف ينكر ذلك والخضرة والماء الجارى محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو ينال منها حظ سوى نفس الرؤية ؟ « وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعْجِبُهُ الْخُضْرَةُ وَالْمَاءُ الْجَارِي(١) » . والطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار والأزهار ، والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل ، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم والهموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر ، فهذه الأسباب

(١) أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء الجارى» وإسناده ضعيف .

ملذة ، وكل لذيذ محبوب ، وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا بالطبع ، فإن ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوبا عند من انكشف له جماله وجلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ(١) » .

الأصل الرابع

فى بيان معنى الحسن والجمال

اعلم أن المحبوس فى مضيق الخيالات والمحسوسات ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الخلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة، إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان ، فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص ، فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصوّر حسنه ، وإذا لم يتصور حسنه لم يكن فى إدراكه لذة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر ، فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة وامتزاج البياض بالحمرة ؟ فإنا نقول: هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن ، بل نقول هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن ، فأيّ معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا فى الصورة ؟ ومعلوم أن العين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن ، والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة ، وما من شيء من المدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح ، فما معنى الحسن الذى تشترك فيه الأشياء ، فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ، ولا يليق بعلم المعاملة الإطناب فيه ، فنصرح بالحق ونقول : كل شيء فجماله وحسنه فى أن يحضر كماله اللائق به الممكن له ، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو فى غاية الجمال ، وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر ، فالفرس

(١) مسلم فى أثناء حديث لابن مسعود .

الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عَدو وتيسر كرّ وفر عليه ، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ، ولكل شىء كمال يليق به ، وقد يليق بغيره ضده ، فحسن كل شىء فى كماله الذى يليق به ، فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ، ولا تحسن الأوانى بما تحسن به الثياب ، وكذلك سائر الأشياء .

فإن قلت : فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم ، فإنها لا تنفك عن إدراك الحواس لها فهى محسوسات ، وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ، ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها ، وإنما ينكر ذلك فى غير المدرك بالحواس .

فاعلم أن الحسن والجمال موجود فى غير المحسوسات ، إذ يقال هذا خُلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة ، وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والمروءة وسائر خلال الخير ، وشىء من هذه الصفات لايدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة ، وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته ، وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع مجبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا، بل على حب أرباب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق ، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله فى نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه فى قتال من يطعن فى إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أريق فى نصرة أرباب المذاهب . وليت شعرى من يحب الشافعى مثلا فلم يحبه ولم يشاهد قط صورته؟ ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته ، فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة ، فإن صورته الظاهرة قد

انقلبت ترابا مع التراب ، وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والإحاطة بمدارك الدين، وانتهاضه لإفادة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات فى العالم ، وهذه أمور جميلة لايدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها ، وكذلك من يحب أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له ، فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره ، فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجلده وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ، ولكن بقى ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات المحمودة التى هى مصادر السير الجميلة ، فكان الحب باقيا ببقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته ، فجميع خلال الخير يتشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ، ومحلهما من جملة البدن جزء لا يتجزأ ، فهو المحبوب بالحقيقة ، وليس للجزء الذى لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوبا لأجله ، فإذن الجمال موجود فى السير ، ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا ؛ فالمحبوب مصدر السير الجميلة ، وهى الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة . وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة ، وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس؛ حتى إن الصبىّ المخلى وطبعه إذا أردنا أن نحبب إليه غائبا أوحاضراً حيا أو ميتا لم يكن لنا سبيل إلا بالإطناب فى وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة ؛ فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك فى نفسه ولم يقدر أن لايحبه ، فهل غلب حبّ الصحابة رضى الله تعالى عنهم وبغض أبى جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالإطناب فى وصف المحاسن والمقابح التى لاتدرك بالحواس ، بل لما وصف الناس حاتما بالسخاء ووصفوا خالدا بالشجاعة أحبتهم القلوب حبا ضروريا ، وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهم ، بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك فى بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة

الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد المزار ونأى الديار .
فإذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه ، بل المحسن فى نفسه محبوب وإن كان لاينتهى قط إحسانه إلى المحب ، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب . والصورة ظاهرة و باطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر . والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة . فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يميل إليها . ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعانى الباطنة أكثر من حبه للمعانى الظاهرة ؛ فشتان بين من يحب نقشاً مصوّراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، و بين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة .

السبب الخامس : المناسبة الخفية بين المحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ(1) » . وقد حققنا ذلك فى كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب فى الله فليطلب منه ، لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب .
فإذن ترجع أقسام الحب إلى خمسة أسباب : وهو حب الإنسان وجود نفسه وكماله و بقائه ، وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع المهلكات عنه ، وحبه من كان محسنا فى نفسه إلى الناس و إن لم يكن محسنا إليه ، وحبه لكل ماهو جميل فى ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة ، وحبه لمن بينه و بينه مناسبة خفية فى الباطن . فلو اجتمعت هذه الأسباب فى شخص واحد تضاعف الحب لامحالة ؛ كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوبا لامحالة غاية الحب ، وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال فى نفسها . فإن كانت هذه الصفات فى أقصى درجات الكمال

(1) مسلم من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم فى آداب الصحبة .

كان الحب لا محالة فى أعلى الدرجات . فلنبين الآن أن هذه الأسباب كلها لايتصور كمالها واجتماعها إلا فى حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحبّ غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره فى معرفة الله تعالى ، وحبّ الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حبّ الله تعالى ، وكذلك حبّ العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق المحبة سواه .

و إيضاحه بأن نرجع إلى الأسباب الخمسة التى ذكرناها ، ونبين أنها مجتمعة فى حق الله تعالى بجملتها ولا يوجد فى غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة فى حق الله تعالى ووجودها فى حق غيره وهم وتخيل ، وهو مجاز محض لا حقيقة له ، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضدّ ماتخيله ضعفاء العقول والقلوب ، من استحالة حب الله تعالى تحقيقا ، و بان أن التحقيق يقتضى أن لا تحب أحدا غير الله تعالى .

فأما السبب الأول وهو حب الإنسان نفسه و بقاءه وكماله ودوام وجوده و بغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله ، فهذه جبلة كل حى ، ولا يتصوّر أن ينفك عنها ، وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى : فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته ، و إنما وجود ذاته ودوام وجوده وكماله وجوده من الله وإلى الله و بالله ، فهو المخترع الموجد له ، وهو المبقى له ، وهو المكمل لوجوده ، بخلق صفات الكمال ، وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محض وعدم صرف لولا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد ، وهو

هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته .

وبالجملة فليس فى الوجود شىء له بنفسه قوام إلا القيوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجدا ومخترعا مبقيا وقيوما بنفسه ، ومقوما لغيره . فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة ، فتنعدم بانعدامها . وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها . ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لما كان يحب الظل ، فيحب بالضرورة الأشجار التى بها قوام الظل ، وكل ما فى الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس ، فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض . إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافا أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعا عند وقوع المقابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة ، كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضا حاصل من قدرة الله تعالى ، ولكن الغرض من الأمثلة التفهيم ، فلا يطلب فيها الحقائق . فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضروريا فحبه لمن به قوامه أولا ، ودوامه ثانيا فى أصله وصفاته ، وظاهره وباطنه ، وجواهره وأعراضه أيضا ضرورى إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن هذا الحب فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه ، فلم يعرفه حق معرفته ، وقصر نظره على شهواته ومحسوساته ، وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم فى التنعم به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطأ أرضه إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة ، فينظر فيه بقدر

قربه فى الصفات من الملائكة ، ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وأما السبب الثانى وهو حبه من أحسن إليه ، فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمده بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه ، وقام بدفع شرّ الأشرار عنه ، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه فى نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده ، وهذا بعينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى . فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط . فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدها ، إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا[1]) وقد أشرنا إلى طرف منه فى كتاب الشكر ، ولكنا نقتصر الآن على بيان أن الإحسان من الناس غير متصور إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أن هذا الإحسان منه وهو غلط ، فإنه إنما تم إحسانه به وبماله ، وبقدرته على المال ، وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذى أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ؟ ومن الذى حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ، ومهما سلط الله عليه الدواعى وقرر فى نفسه أن صلاح دينه أو دنياه فى أن يسلم إليك ماله كان مقهورا مضطرا فى التسليم لا يستطيع مخالفته ؛ فالمحسن هو الذى اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعى الباعثة المرهقة إلى الفعل . وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، وصاحب اليد مضطر فى ذلك اضطرار مجرى الماء فى جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسنا أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لا من حيث هو واسطة كنت جاهلا بحقيقة الأمر ، فإنه لا يتصور الإحسان من الإنسان إلا إلى نفسه ؛ أما الإحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين ، لأنه لا يبذل ماله إلا لغرض له فى البذل . إما آجل

(١) سورة إبراهيم عليه السلام ، آية ٣٤ .

وهو الثواب ، وإما عاجل وهو المنة والاستسخار ، أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاء والكرم ، أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة والمحبة ؛ وكما أن الإنسان لا يلقى ماله فى البحر إذ لا غرض له فيه ، فلا يلقيه فى يد إنسان إلا لغرض له فيه ، وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده . وأما أنت فلست مقصودا بل يدك آلة له فى القبض حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال ، فقد استسخرك فى القبض للتوصل إلى غرض نفسه ، فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضا هو أرجح عنده من ماله ، ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلا البتة .

فإذن هو غير مستحق للشكر والحب من وجهين : أحدهما : أنه مضطر بتسليط الله الدواعى عليه ، فلا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير ، فإنه لا يرى محسنا بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه ، لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ، ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك ، فكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعى عليه وألقى فى نفسه أن حظه دينا ودنيا فى بذله فبذله لذلك .

والثانى : أنه معتاض عما بذله حظا هو أوفى عنده وأحب مما بذله ، فكما لا يعد البائع محسنا ، لأنه بذل بعوض هو أحب عنده مما بذله ، فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد والثناء أو عوضا آخر ، وليس من شرط العوض أن يكون عينا متمولا بل الحظوظ كلها أعواض تستحقر الأموال والأعيان بالإضافة إليها ، فالإحسان فى الجود والجود هو بذل المال من غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه ، فهو الذى أنعم على العالمين إحسانا إليهم ولأجلهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فإنه يتعالى عن الأغراض فلفظ الجود والإحسان فى حق غيره كذب أو مجاز ، ومعناه فى حق غيره محال وممتنع امتناع الجمع بين السواد والبياض ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطول والامتنان ، فإن كان فى الطبع حب المحسن فينبغى أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، إذ الإحسان من غيره محال ،

فهو المستحق لهذه المحبة وحده . وأما غيره فيستحق المحبة على الإنسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأما السبب الثالث ، وهو حبك المحسن فى نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه ، وهذا أيضا موجود فى الطباع ، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو فى قطر من أقطار الأرض بعيد عنك ، و بلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك ، فإنك تجد فى قلبك تفرقة بينهما ، إذ تجد فى القلب ميلا إلى الأول وهو الحب ، ونفرة عن الثانى وهو البغض مع أنك آيس من خير الأول وآمن من شر الثانى ، لانقطاع طمعك عن التوغل إلى بلادهما ، فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط لا من حيث إنه محسن إليك . وهذا أيضا يقتضى حب الله تعالى بل يقتضى أن لا يحب غيره أصلا إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإن الله هو المحسن إلى الكافة ، والمتفضل على جميع أصناف الخلائق أولا بإيجادهم وثانيا بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التى هى من ضروراتهم . وثالثا بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التى هى فى مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن فى مظان الضرورة . ورابعا بتجميلهم بالمزايا والزوائد التى هى فى مظنة زينتهم ، وهى خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ؛ ومثال الضرورى من الأعضاء الرأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل . ومثال الزينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلون العينين ، إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة . ومثال الضرورى من النعم الخارجة عن بدن الإنسان الماء والغذاء ، ومثال الحاجة الدواء واللحم والفواكه ، ومثال المزايا والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار ولذائذ الفواكه والأطعمة التى لا تنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة ، وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الفرش ، فإذن هو المحسن فكيف يكون غيره محسنا ؟ وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ، فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان

وخالق أسباب الإحسان ، فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ؛ ومن عرف ذلك لم يحب بهذه العلة إلا الله تعالى.

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال منه وراء إدراك الجمال ، فقد بينا أن ذلك مجبول فى الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة . والأول يدركه الصبيان والبهائم . والثانى يختص بدركه أرباب القلوب ، ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب . ومثال هذا فى المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوى المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوش صورة الوجه وسائر الأعضاء ، وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعى رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التى هى مصدر الأفعال ، إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها ، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التى يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة كان العلم أشرف وأجمل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدرا ، وأجل المعلومات هو الله تعالى ؛ فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى وكذلك ما يقارب به ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به .

فإذن جمال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع إلى ثلاثة أمور : أحدها: علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثانى : قدرتهم على إصلاح أنفسهم

وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . والثالث : تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة ، الصارفة عن سنن الخير ، الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم ، فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذى يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا[1]) بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته فى تفصيل خلق نملة أو بعوضة لم يطلعوا على عشر عشير ذلك : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ[2]) والقدر اليسير الذى علمه الخلائق كلهم فبتعليمه علموه كما قال تعالى : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[3]) فإن كان جمال العلم وشرفه أمرا محبوبا وكان هو فى نفسه زينة وكمالا للموصوف به ، فلا ينبغى أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى ، فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه ، بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعلم وإن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما تتقاضاه معيشته ، والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلائق وأجهلهم ، لأن الأعلم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور فى الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد ، وفضل علم الله تعالى على علوم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ، إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخلق متناهية .

وأما صفة القدرة : فهى أيضا كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ ، حتى أن الإنسان ليسمع فى الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٥ . (٢) سورة البقرة ، آية ٢٥٥ .
(٣) سورة الرحمن ، آية ٣ ، ٤

في قلبه اهتزازا وفرحا وارتياحا ضروريا بمجرد لذة السماع فضلا عن المشاهدة ، ويورث ذلك حبا في القلب ضروريا للمتصف به ، فإنه نوع كمال ، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى ، فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكا وأقواهم بطشا وأقهرهم للشهوات وأقمعهم لخبائث النفس ، وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره ما منتهى قدرته ، وإنما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الأمور ، وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتا ولا حياة ولا نشورا ولا ضرا ولا نفعا ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ، ولا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره مما هو على الجملة متعلق قدرته ، فضلا عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها ، والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها ، فلا قدرة له على ذرة منها ، وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ، ولو سلط بعوضا على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه ، فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال : (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ [1]) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم ، وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غبرة من تلك المدرة ، ثم تلك الغبرة أيضا من فضل الله تعالى وتمكينه ، فيستحيل أن يحب عبدا من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ، ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فهو الجبار القاهر والعليم القادر . السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة ، وإن خلق

(١) سورة الكهف ، آية ٨٤ .

أمثالهم ألف مرة لم يعي بخلقها ، ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها . فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من آثار قدرته . فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء . فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلا .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث ، فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقدس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام .

وأما كل مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص ، بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص . فالكمال لله وحده ، وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله ، وليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره ، فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره ، فهو المنفرد بالكمال المنزه عن النقص المقدس عن العيوب ، وشرح وجوه التقدس والتنزه في حقه عن النقائص يطول ، وهو من أسرار علوم المكاشفات ، فلا نطول بذكره ، فهذا الوصف أيضا إن كان كمالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقته إلا له ، وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا ، بل بالإضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا ؛ كما أن للفرس كمالا بالإضافة إلى الحمار وللإنسان كمالا بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل للكل ، وإنما يتفاوتون في درجات النقصان ؛ فإذن الجميل محبوب ، والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له ، الفرد الصمد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبديّ الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ،

ويقوم كل موجود به ، جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ، المتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذى تتحير فى معرفة جلاله العقول ، وتخرس فى وصفه الألسنة ، الذى كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين «لاَ أُحْصِى ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك. سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . فليت شعرى من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا ويجعله مجازا . أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن ؟ أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها ؟ أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه . فسبحان من احتجب عن بصائر العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى ، الذين هم عن نار الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين فى ظلمات العمى يتيهون ، وفى مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ[١]) . (الحمدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ[٢]) فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالإحسان ، لأن الإحسان يزيد وينقص . ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أودّ الأوداء إلىّ من عبدنى بغير نوال لكن ليعطى الربوبية حقها .

وفى الزبور : من أظلم ممن عبدنى لجنة أو نار ، لو لم أخلق جنة ولا نارا ألم أكن أهلا أن أطاع .

ومر عيسى عليه السلام على طائفة من العباد قد نحلوا فقالوا نخاف النار ونرجو الجنة ،

(١) سورة الروم ، آية ٧ (٢) سورة الزمر ، آية ٢٩

فقال لهم مخلوقا خفتم ومخلوقا رجوتم . ومرّ بقوم آخرين كذلك ، فقالوا نعبده حبا له وتعظيما لجلاله. فقال: أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرتُ أن أقيم .

وقال أبو حازم : إنى لأستحيى أن أعبده للثواب والعقاب ، فأكون كالعبد السوء إن لم يخفْ لم يعمل ، وكالأجير السوء إن لم يُعط لم يعمل . وفى الخبر : « لَا يَكُونَنَّ أَحَدُكُمْ كَالْأَجِيرِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يُعْطَ أَجْرًا لَمْ يَعْمَلْ ، وَلَا كَالْعَبْدِ السُّوءِ إِنْ لَمْ يَخَفْ لَمْ يَعْمَلْ[١] » .

وأما السبب الخامس للحبّ فهو المناسبة والمشاكلة ، لأن شبه الشىء منجذب إليه ، والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبى يألف الصبى والكبير يألف الكبير ، ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه ، وأنسَ العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف ، وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلاح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهد له الأخبار والآثار ، كما استقصيناه فى باب الأخوة فى الله من كتاب آداب الصحبة، فليطلب منه .

وإذا كانت المناسبة سبب المحبة ، فالمناسبة قد تكون فى معنى ظاهر كمناسبة الصبى الصبى فى معنى الصبا ، وقد يكون خفيا حتى لايطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذى يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع فى مال أو غيره كما أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال : « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » فالتعارف هو التناسب ، والتناكر هو التباين ، وهذا السبب أيضا يقتضى حب الله تعالى لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة فى الصور والأشكال ، بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها فى الكتب ، وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتى يعثر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك ؛ فالذى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل فى الصفات التى أمر فيها بالاقتداء والتخلق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل :

(١) لم أجد له أصلا .

تخلقوا بأخلاق الله ، وذلك فى اكتساب محامد الصفات التى هى من صفات الإلهية من العلم والبرّ والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى لابمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات . وأما مالا يجوز أن يسطر فى الكتب من المناسبة الخاصة التى اختص بها الآدمى فهى التى يومئ إليها قوله تعالى : (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى (١)) إذ بين أنه أمر ربانى خارج عن حد عقول الخلق : وأوضح من ذلك قوله تعالى : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى (٢)) ولذلك أسجد له ملائكته ، ويشير إليه قوله تعالى : (إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ (٣)) إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك المناسبة ، وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » حتى ظن القاصرون أن لاصورة إلا الصورة الظاهرة المدركة بالحواس ، فشبهوا وجسّموا وصوّروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علوا كبيرا ، وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام : « مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى ، فَقَالَ : يَا رَبِّ وَكَيْفَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : مَرِضَ عَبْدِى فُلَانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ ، وَلَوْ عُدْتَهُ وَجَدْتَنِى عِنْدَهُ » وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرائض كما قال الله تعالى : « لَا يَزَالُ يَتَقَرَّبُ الْعَبْدُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِى يَنْطِقُ بِهِ » وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه . فقد تحزب الناس فيه ، إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر ، وإلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول ، حتى قال بعضهم أنا الحق . وضل النصارى فى عيسى عليه السلام فقالوا هو الإله ، وقال آخرون منهم تدرّع الناسوت باللاهوت ، وقال آخرون اتحد به .

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٨٥ (٢) سورة ص ، آية ٧٢
(٣) سورة ص ، آية ٢٦

وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم مع ذلك حقيقة السر فهم الأقلون ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا المقام كان ينظر إذا غلبه الوجد فى قول القائل :

لَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وِدَادِكَ مَنْزِلاً   تَتَحَيَّرُ الْأَلْبَابُ عِنْدَ نُزُولِهِ

فلم يزل يعدو فى وجده على أجمة قد قطع قصبها وبقى أصوله حتى تشققت قدماه وتورمتا ومات من ذلك ، وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها ، وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هى المعلومة من أسباب الحب ، وجملة ذلك متظاهرة فى حق الله تعالى تحقيقا لامجازا ، وفى أعلى الدرجات لافى أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط ، كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه فى السبب . والشركة نقصان فى الحب وغض من كماله ، ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التى هى نهاية الجلال والكمال ، ولا شريك له فى ذلك وجودا ، ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا . فلا جرم لا يكون فى حبه شركة ، فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا تتطرق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق . إذ الأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

بيان أن أجل اللذات وأعلاها معرفة الله تعالى

والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ولذتها في نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له ، فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام ، فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها فى نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها ، وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم ، فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها ، فكذلك فى القلب غريزة تسمى النور الإلهى ، لقوله تعالى : (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ [1]) وقد تسمى العقل ، وقد تسمى البصيرة الباطنة ، وقد تسمى نور الإيمان واليقين ، ولا معنى للاشتغال بالأسامى فإن الاصطلاحات مختلفة ، والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى ، لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب ؛ فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة ، كإدراكه خلق العالم أوافتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ، ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل مايدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعز الصفات ، فلا ينبغى أن تذم ،

---

(١) سورة الزمر ، آية ٢٢

وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور كلها . فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها . وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو فى شىء خسيس يفرح به ، والذى ينسب إلى الجهل ولو فى شىء حقير يغتم به . وحتى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة . فالعالم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر مايعلمه ، وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذ به . ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وحبه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم .

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها وشرفها بحسب شرف المعلوم ، فإن كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكمل والأشرف والأعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها . وليت شعرى هل فى الوجود شىء أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ، ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن تكون حضرة

في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التي لايحيط بمبادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ، فإن كنت لا تشك في ذلك فلا ينبغي أن تشك في أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات ، وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار ، وبهذا تبين أن العلم لذيذ ، وأن ألذ العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين ، فينبغي أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعني لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس . فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ؛ كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ، ولذة المعرفة للذة الرياسة . وهي مختلفة بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر للشهوة . وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه في الجمال ، وإنما تعرف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها ، فإن المخير بين النظر إلى صورة جميلة والتمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألذ عنده من الروائح الطيبة ، وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل ، فيعلم به أن لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل ، فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللذات .

فنعود ونقول : اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق ، والمعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج ، وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد النهمة اختار اللحم والحلاوة ، وإن كان علي الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة

القوت أياما كثيرة ، فاختياره للرياسة يدل على أنها ألذ عنده من المطعومات الطيبة . نعم الناقص الذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لايبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة . وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والعته ، فلذة معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية ، والنظر إلى أسرار الأمور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق ، وغاية العبارة عنه أن يقال : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ[1]) وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذا الآن لايعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر ، وينغمس في بحار المعرفة ، ويترك الرياسة ، ويستحقر الخلق الذين يرأسهم ، لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعا بالموت الذي لابد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين ، فإنها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير السموات والأرض . وإذا خرج النظر عن المقدرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض ، يرتع في رياضها ، ويقطف من ثمارها ، ويكرع من حياضها ، وهو آمن من انقطاعها ؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هي أبدية سرمدية لايقطعها الموت ، إذ الموت لايهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحلها الروح الذي هو أمر رباني سماوي ، وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من حبسها ، فأما أن يعدمها فلا : (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ

(١) سورة السجدة ، آية ١٧

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ(١)) الآية . ولا تظنن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة ، فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد . وفى الخبر : « إِنَّ الشَّهِيدَ يَتَمَنَّى فِى الآخِرَةِ أَنْ يُرَدَّ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلُ مَرَّةً أُخْرَى لِعِظَمِ مَا يَرَاهُ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، وَإِنَّ الشُّهَدَاءَ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ كَانُوا عُلَمَاءَ لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ عُلُوِّ دَرَجَةِ الْعُلَمَاءِ(٢) » فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف ، يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه ، فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة متنزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم ، وهم درجات عند الله ، ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم . فقد ظهر أن لذة الرياسة وهى باطنة أقوى فى ذوى الكمال من لذات الحواس كلها ، وأن هذه اللذة لا تكون لبهيمة ولا لصبى ولا لمعتوه ، وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لذوى الكمال مع لذة الرياسة ، ولكن يؤثرون الرياسة . فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار ملكه أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ، ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له ، لأن القلب معدن هذه القوة . كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللعب بالصولجان عند الصبيان ، ولا رجحانه على لذة شم البنفسج عند العنين ، لأنه فقد الصفة التى بها تدرك هذه اللذة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين ، وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال : من ذاق عرف . ولعمرى طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا

(١) سورة آل عمران ، آية ١٦٩ ، ١٧٠

(٢) متفق عليه من حديث أنس ، وقد تقدم ، وليس فيه وإن الشهداء يتمنون أن يكونوا علماء الحديث .

رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التى قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضا معارف وعلوم وإن كانت معلوماتهم غير شريفة شرف المعلومات الإلهية . فأما من طال فكره فى معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشئ اليسير ، فإنه يصادف فى قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه فى ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره ، وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى ، فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء وأنه لا لذة فوقها . ولهذا قال أبو سليمان الدارانى : إن لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنى يا أبا محفوظ أى شىء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت ، فقال ذكر الموت ، فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال ذكر القبر والبرزخ ، فقال : وأى شىء القبر ؟ فقال خوف النار ورجاء الجنة ، فقال : وأى شىء هذا ؟ إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك ، وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا .

وفى أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغوفاً بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه .

ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث فى النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان ، قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النظر إليه .

وعن على بن الموفق قال : رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة ، فرأيت رجلا قاعدا على مائدة وملكان عن يمينه وشماله يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل . ورأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا . قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس . فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف . فقلت لرضوان من هذا ؟ فقال معروف الكرخى ، عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة .

وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل . ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ، ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه .

وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت : ما عبدته خوفا من ناره ، ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له ، وشوقا إليه . وقالت فى معنى المحبة نظما :

أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ حُبَّ الْهَوَى ... وَحُبًّا لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذَاكَا
فَأَمَّا الَّذِى هُوَ حُبُّ الْهَوَى ... فَشُغْلِى بِذِكْرِكَ عَمَّنْ سِوَاكَا
وَأَمَّا الَّذِى أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ ... فَكَشْفُكَ لِى الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَا
فَلَا الْحَمْدُ فِى ذَا وَلَا ذَاكَ لِى ... وَلَكِنْ لَكَ الْحَمْدُ فِى ذَا وَذَاكَا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله ، لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، وبحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبين وأقواهما ، ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى : « أَعْدَدْتُ لِعِبَادِىَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ (١) » وقد تعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب يا ألله فأجد ذلك عَلَى قلبى أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب . وهل رأيتَ جليسا ينادى جليسه . وقال : إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة : أى يخرج كلامه عن حد عقولهم ، فيرون مايقوله جنونا أو كفراً . فمقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط . فهى قرة العين التى لاتعلم نفس ما أخفى لهم منها . وإذا حصلت انمحقت الهموم والشهوات كلها وصار

(١) البخارى من حديث أبى هريرة .

القلب مستغرقا بنعيمها ، فلو ألقى فى النار لم يحسّ بها لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية ؛ وليت شعرى من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل ؟ . وأىّ معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم ، بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة كلها تنطوى تحت هذه اللذة كما قال بعضهم :

كَانَتْ لِقَلْبِىَ أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ مُذْ رَأَتْكَ الْعَيْنُ أَهْوَائِى
فَصَارَ يَحْسُدُنِى مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْ صِرْتَ مَوْلَائِى
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ ... شُغْلًا بِذِكْرِكَ يَا دِينِى وَدُنْيَائِى

ولذلك قال بعضهم :

وَهَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ نَارِهِ ... وَوَصْلُهُ أَطْيَبُ مِنْ جَنَّتِهْ

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته فى لقاء الله فقط . ومثال أطوار الخلق فى لذتهم ماذكره ، وهو أن الصبى فى أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده ألذ من سائر الأشياء ، ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب ، فيستحقر معها لذة اللعب . ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ماقبلها فى الوصول إليها ، ثم تظهر لذة الرياسة والعلوّ والتكاثر وهى آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ (١)) الآية ، ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك

(١) سورة الحديد ، آية ٢٠

بها لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ، فيستحقر معها جميع ماقبلها ، فكل متأخر فهو أقوى ، وهذا هو الأخير ، إذ يظهر حب اللعب فى سن التمييز ، وحب النساء والزينة فى سن البلوغ ، وحب الرياسة بعد العشرين ، وحب العلوم بقرب الأربعين وهى الغاية العليا وكما أن الصبى يضحك على من يترك اللعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة . فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون : (إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ[١]) .

بيان السبب فى زيادة النظر فى لذة الآخرة

على المعرفة فى الدنيا

اعلم أن المدركات تنقسم إلى مايدخل فى الخيال : كالصور المتخيلة والأجسام المتلونة والمتشكلة من أشخاص الحيوان والنبات ، وإلى ما لايدخل فى الخيال كذات الله تعالى وكل ماليس بجسم : كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، ومن رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة فى خياله كأنه ينظر إليها ، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين ؛ لأن الصورة المرئية تكون موافقة للمتخيلة ، وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف ، فإن صورة المرئى صارت بالرؤية أتم انكشافا ووضوحاً وهو كشخص يرى فى وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار ثم رؤى عند تمام الضوء ، فإنه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا فى مزيد الانكشاف ، فإذن الخيال أول الإدراك ، والرؤية هو الاستكمال لإدراك الخيال وهو غاية الكشف ، وسمى ذلك رؤية لأنه غاية الكشف لا لأنه فى العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف فى الجبهة أوالصدر مثلا استحق أن يسمى رؤية .

(١) سورة هود عليه السلام ، آية ٣٨ ، ٣٩

وإذا فهمت هذا فى المتخيلات ، فاعلم أن المعلومات التى لا تتشكل أيضا فى الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى ، والثانية استكمال لها ، وبين الأولى والثانية من التفاوت فى مزيد الكشف والإيضاح ما بين المتخيل والمرئى ، فيسمى الثانى أيضا بالإضافة إلى الأول مشاهدة ولقاء ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية سميت رؤية ، لأنها غاية الكشف . وكما أن سنة الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجابا بين البصر والمرئى ، ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية ، ومالم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل ؛ فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما غلب عليها من الصفات البشرية ، فإنها لا تنتهى إلى المشاهدة واللقاء فى المعلومات الخارجة عن الخيال ، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار . والقول فى سبب كونها حجابا يطول ولا يليق بهذا العلم . ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام : (لَنْ تَرَانِى[١]) وقال تعالى : (لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ[٢]) أى فى الدنيا . والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج[٣] . فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة ، فمنها ما تراكم عليه الخبث والصدأفصار كالمرآة التى فسد، بطول تراكم الخبث، جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصقيل

(١) سورة الأعراف ، آية ١٤٣ (٢) سورة الأنعام ، آية ١٠٣

(٣) هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة فى الصحيحين أنها قالت : من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبى ذر « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال نور أنى أراه » وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له ؛ وعائشة لم ترو ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . وحديث أبى ذر قال فيه أحمد مازلت له منكرا . وقال ابن خزيمة فى القلب من صحة إسناده شىء مع أن فى رواية لأحمد فى حديث أبى ذر « رأيته نورا أنى أراه » ورجال إسنادها رجال الصحيح .

وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، فيعرض على النار عرضا يقمع منه الخبث الذى هو متدنس به ويكون العرض عَلَى النار بقدر الحاجة إلى التزكية ، وأقلها لحظة خفيفة ، وأقصاها فى حق المؤمنين كما وردت به الأخبار : « سَبْعَةُ آلاَفِ سَنَةٍ(١) » ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غبرة وكدورة ما، وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا. ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا(٢)) فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها ، فإذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ، ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحدا من خلقه ، فإنه واقع بعد القيامة ، ووقت القيامة مجهول ، فعند ذلك يشتغل بصفائه ونقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غبرة ولا قترة ، لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى ، فيتجلى له تجليا يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمه كانكشاف تجلى المرآة بالإضافة إلى ما تخيله ، وهذه المشاهدة والتجلى هى التى تسمى رؤية ، فإذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوا كبيرا ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة ، من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة ، فتراه فى الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة فى الآخرة ، والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من

(١) الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول من حديث أبى هريرة «إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتى» الحديث ، وفيه «وأطولهم مكثا فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة» وإسناده ضعيف .

(٢) سورة مريم ، آية ٧١ ، ٧٢

حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية ، فإذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف أيضا جهة وصورة ، لأنها هى بعينها لا تفترق منها إلا فى زيادة الكشف ، كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا(١)) إذ تمام النور لا يؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية، إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والحب زرعا ، ومن لا نواة فى أرضه كيف يحصل له نخل ، ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع . فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة ؟ ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلى أيضا على درجات متفاوتة ، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر ، إذ تختلف لا محالة بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ، ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللهَ يَتَجَلَّى لِلنَّاسِ عَامَّةً وَلِأَبِى بَكْرٍ خَاصَّةً(١) » . فلا ينبغى أن يظن أن غير أبى بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والمشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشيره إن كانت معرفته فى الدنيا عشر عشيره ، ولما فضل الناس بسر وقر فى صدره فضل لا محالة بتجل انفرد به ، وكما أنك ترى فى الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات

(١) سورة التحريم ، آية ٨

(٢) ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الأسناد . وفى الميزان للذهبى أن الداوقطنى رواه عن المحاملى عن على بن عبدة ، وقال الدارقطنى إن على بن عبدة كان يضع الحديث ، ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق وابن الجوزى فى الموضوعات من حديث جابر وأبى بردة وعائشة .

والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعاً ، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة ، إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح ، وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ما وصفناه ، من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب وسائر الخلق مشغولون به . ولذلك لما قيل لرابعة ما تقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار فبينت أنه ليس فى قلبها التفات إلى الجنة ، بل إلى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ، ولا يموت إلا على ما عاش عليه ، فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء ، فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فإن ذلك منتهى لذته ، وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهى ، فمن لا يشتهى إلا لقاء الله تعالى ، فلا لذة له فى غيره بل ربما يتأذى به ، فإذن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادات هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالإيمان .

فإن قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهى قليلة وإن كان أضعافها لأن لذة المعرفة فى الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهى فى القوة إلى أن يستحقر سائر لذات الجنة فيها . فاعلم أن هذا الاستحقار للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة ، فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها ، وإن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا فكيف يدرك لذتها ؟ فللعارفين فى معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة فى الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلا إلى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها ولا للذة اللمس باليد

إلى لذة الوقاع ، وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فنقول :

لذة النظر إلى وجه المعشوق فى الدنيا تتفاوت بأسباب :

أحدها : كمال جمال المعشوق ونقصانه ، فإن اللذة فى النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة .

والثانى : كمال قوة الحب والشهوة والعشق ، فليس التذاذ من اشتد عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبه .

والثالث : كمال الإدراك ، فليس التذاذه برؤية المعشوق فى ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بعد كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضوء ، ولا إدراك لذة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد .

والرابع : اندفاع العوائق المشوشة والآلام الشاغلة للقلب ، فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم أو المشغول قلبه بمهم من المهمات . فقدّر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته فى حالة اجتمع عليه عقارب وزنابير تؤذيه وتلدغه وتشغل قلبه ، فهو فى هذه الحالة لا يخلو عن لذة ما من مشاهدة معشوقه . فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقى سليما فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات . فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يعتد بها فكذلك ، فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة ؛ فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به ، والعقارب والزنابير مثال الشهوات المتسلطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغم والحزن وضعف الشهوة ، والحب مثال لقصور النفس فى الدنيا ونقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى والتفاتها إلى أسفل السافلين ، وهو مثل قصور الصبى عن ملاحظة لذة الرياسة والتفاته إلى اللعب بالعصفور ، والعارف وإن قويت فى الدنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوشات ، ولا يتصور أن يخلو عنها البتة . نعم قد تضعف هذه العوائق فى بعض الأحوال ولا تدوم ، فلا جرم يلوح من جمال المعرفة

مايبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، ولـكن يكون ذلك كالبرق الخاطف ، وقلما يدوم ، بل يعرض من الشواغل والأفكار والخواطر مايشوّشه وينغصه ، وهذه ضرورة دائمة فى هذه الحياة الفانية ، فلا تزال هذه اللذة منغصة إلى الموت ، وإنما الحياة الطيبة بعد الموت ، وإنما العيش عيش الآخرة (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١)) وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فإنه يحب لقاء الله تعالى ، فيحب الموت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال فى المعرفة ، فإن المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لاساحل له ، فالإحاطة بكنه جلال الله محال ، فكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر النعيم فى الآخرة وعظم ؛ كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن ، ولا يمكن تحصيل هذا البذر إلا فى الدنيا ، ولا يزرع إلا فى صعيد القلب ، ولا حصاد إلا فى الآخرة ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ السَّعَادَاتِ طُولُ الْعُمْرِ فى طَاعَةِ اللهِ (٢) » لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع فى العمل الطويل ، بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع عن علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زماناً لا محالة ، فمن أحب الموت أحبه لأنه رأى نفسه واقفا فى المعرفة بالغا إلى منتهى ما يسر له ، ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تحتمله قوّته لو عمر ، فهذا سبب كراهة الموت وحبه عند أهل المعرفة .

(١) سورة العنكبوت ، آية ٦٤ (٢) إبراهيم الحربى فى كتاب ذكر الموت من رواية ابن لهيعة عن ابن الهاد عن المطلب عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « السعادة كل السعادة طول العمر فى طاعة الله » ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف فى صحبته . ولأحمد من حديث جابر « إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة » والترمذى من حديث أبى بكرة « أن رجلا قال يارسول الله أى الناس خير؟ قال من طال عمره وحسن عمله » قال هذا حديث حسن صحيح ، وقد تقدم .

وأما سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدنيا ، إن اتسعت أحبوا البقاء ، وإن ضاقت تمنوا الموت ، وكل ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل والغفلة . فالجهل والغفلة مغرس كل شقاوة ، والعلم والمعرفة أساس كل سعادة ، فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى العشق ، فإنه المحبة المفرطة القوية ؛ ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لذة الرؤية ، ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان ، كما لم تكن الرياسة ألذ من المطعومات عند الصبيان .

فإن قلت : فهذه الرؤية محلها القلب أوالعين فى الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا فى ذلك ، وأهل البصائر لايلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه ، بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ، ومن يشتهى رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق فى عينه أو فى جبهته ، بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أوغيرها ، فإن العين محل وظرف لانظر إليه ولا حكم له . والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن نحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين ، هذا فى حكم الجواز . فأما الواقع فى الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ماظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق فى العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة فى الشرع مجرى على ظاهره ، إذ لايجوز إزالة الظواهر إلا للضرورة ، والله تعالى أعلم .

بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى

اعلم أن أسعد الخلق حالا فى الآخرة أقواهم حبا لله تعالى ، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه ، وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول

(١) حديث «رؤية الله فى الآخرة حقيقة» متفق عليه من حديث أبى هريرة «إن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر؟ » الحديث تقدم .

شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغص ومكدر ، ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع ، إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب ، فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة . وإنما يكتسب العبد حب الله تعالى فى الدنيا ؛ وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن ، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة . وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى ينتهى إلى الاستهتار الذى يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون ، وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا ، وإخراج حب غير الله من القلب ، فإن القلب مثل الإناء الذى لا يتسع للخل مثلا ما لم يخرج منه الماء (مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ[1]) وكمال الحب فى أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ، وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره ، فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله ، وبقدر ما يبقى من الماء فى الإناء ينقص من الخل المصبوب فيه ، وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى : (قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فى خَوْضِهِمْ[2]) وبقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا[3]) بل هو معنى قولك « لا إله إلا الله » أى لا معبود ولا محبوب سواه ، فكل محبوب فإنه معبود ، فإن العبد هو المقيد والمعبود هو المقيد به ، وكل محب فهو مقيد بما يحبه ، ولذلك قال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ[4]) . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ إِلٰهٍ عُبِدَ فى الأَرْضِ الْهَوَى » ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ لَا إِلٰهَ إِلا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ » ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله ، فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ، ومن هذا حاله فالدنيا سجنه لأنها مانعة له من مشاهدة محبوبه ، وموته خلاص من السجن وقدوم على المحبوب ، فما حال من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتمادى عنه حبسه ، فخلى من السجن ومكن من المحبوب وروّح بالأمن أبد الآباد ، فأحد أسباب ضعف حب الله فى القلوب قوة حب الدنيا

(١) سورة الأحزاب ، آية ١٣ (٢) سورة الأنعام ، آية ٩١
(٣) سورة فصلت ، آية ٣٠ (٤) سورة الفرقان ، آية ٤٣

ومنه حب الأهل والمال والولد والأقارب والعقار والدواب والبساتين والمتنزهات ، حتى إن المتفرج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه ، فبقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه بالله ، ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئا إلا وينقص بقدره من الآخرة بالضرورة ، كما أنه لا يقرب الإنسان من المشرق إلا ويبعد بالضرورة من المغرب بقدره ، ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضرتها ، فالدنيا والآخرة ضرتان وهما كالمشرق والمغرب ، وقد انكشف ذلك لذوى القلوب انكشافا أوضح من الإبصار بالعين ، وسبيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف والرجاء . فما ذكرناه من المقامات ، كالتوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هى مقدمات ليكتسب بها أحد ركنى المحبة وهو تخلية القلب عن غير الله ، وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ، ثم يتشعب منه الخوف والرجاء ويتشعب منهما التوبة والصبر عليهما ، ثم ينجر ذلك إلى الزهد فى الدنيا وفى المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وحبه فيه ، فكل ذلك مقدمات تطهير القلب ، وهو أحد ركنى المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ[1] » كما ذكرناه فى أول كتاب الطهارة .

السبب الثانى لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلاؤها على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلائقها يجرى مجرى وضع البذر فى الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثانى ، ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة ، وهى الكلمة الطيبة التى ضرب الله بها مثلا حيث قال : (ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فى السَّمَاءِ[2]) وإليها الإشارة بقوله تعالى : (إِلَيْهِ

(١) من حديث أبى مالك الأشعرى ، وقد تقدم
(٢) سورة إبراهيم عليه السلام ، آية ٢٤

يصعد الكلم الطيب) أى المعرفة (والعمل الصالح يرفعه(١)) فالعمل الصالح كالجمال لهذه المعرفة وكالخادم ، وإنما العمل الصالح كله فى تطهير القلب أولا من الدنيا ثم إدامة طهارته ، فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة . وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل ، فالعلم هو الأول وهو الآخر ، وإنما الأول علم المعاملة ، وغرضه العمل ، وغرض المعاملة صفاء القلب وطهارته ، ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة ، ومهما حصلت هذه المعرفة تبعتها المحبة بالضرورة ، كما أن من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ، ومهما أحبه حصلت اللذة ، فاللذة تبع المحبة بالضرورة ، والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ، ولا يوصل إلى هـذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصافى ، والذكر الدائم ، والجد البالغ فى الطلب ، والنظر المستمر فى الله تعالى وفى صفاته وفى ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته ؛ والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ، ويكون أول معرفتهم الله تعالى ، ثم به يعرفون غيره ، وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل ، وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى : (أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد(٢)) وبقوله تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو(٣)) . ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك ؟ قال عرفت ربى بربى ولولا ربى لما عرفت ربى ؛ وإلى الثانى الإشارة بقوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق(٤)) الآية ، وبقوله عز وجل : (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض(٥)) وبقوله تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض(٦)) وبقوله تعالى : (الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

(١) سورة فاطر ، آية ١٠ (٢) سورة فصلت ، آية ٥٣
(٣) سورة آل عمران ، آية ١٨ (٤) سورة فصلت ، آية ٥٣
(٥) سورة الأعراف ، آية ١٨٠ (٦) سورة يونس عليه السلام ، آية ١٠١

البصر خاسئا وهو حسير(١)) وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين ، وهو الأوسع على السالكين ، وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكر والاعتبار والنظر فى آيات خارجة عن الحصر .

فإن قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق ، فهو غامض والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق ، فلا فائدة فى إيراده فى الكتب . وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام ، وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحظوظ النفس ، والمانع من ذكر هذا اتساعه وكثرته وانشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية ، إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنتهى جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى(٢)) فالخوض فيه انغماس فى بحار علوم المكاشفة ، ولا يمكن أن يتطفل به على علوم المعاملة ، ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه .

فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال، فلنتكلم فيها ، ولنترك الأعلى، ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقرها وأصغرها، ولننظر فى عجائبها، فأقل المخلوقات هو الأرض وما عليها ؛ أعنى بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات ، فإنك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم فى الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هى مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة . فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ، ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها الذى هى مركوزة فيه ، فإنه لا نسبة لها إليه ، وهى فى السماء الرابعة ، وهى صغيرة بالإضافة إلى مافوقها من السموات السبع ، ثم السموات السبع فى الكرسى

(١) سورة الملك ، آية ٣ ، ٤ (٢) سورة الكهف ، آية ١٠٩

كحلقة فى فلاة ، والكرسى فى العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير ، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها ، بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأَرْضُ فى الْبَحْرِ كَالإِصْطَبْلِ فى الأَرْضِ [١] » ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض . ثم انظر إلى الآدمى المخلوق من التراب الذى هو جزء من الأرض ، وإلى سائر الحيوانات وإلى صغره بالإضافة إلى الأرض ، ودع عنك جميع ذلك ، فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجرى مجراه . فانظر فى البعوض على قدر صغر قدره ، وتأمله بعقل حاضر وفكر صاف . فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الذى هو أعظم الحيوانات ، إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين . وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة ، فأنبت جناحه ، وأخرج يده ورجله ، وشق سمعه وبصره ، ودبر فى باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته ما دبره فى سائر الحيوانات ، وركب فيها من القوى الغاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والهاضمة ما ركب فى سائر الحيوانات هذا فى شكله وصفاته ، ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه ، وعرفه أن غذاءه دم الإنسان . ثم انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان ، وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو محدد الرأس . وكيف هداه إلى مسامّ بشرة الإنسان حتى يضع خرطومه فى واحد منها . ثم كيف قواه حتى يغرز فيه الخرطوم . وكيف علمه المص والتجرع للدم . وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفا حتى يجرى فيه الدم الرقيق . وينتهى إلى باطنه وينتشر فى سائر أجزائه ويغذيه ، ثم كيف عرفه أن الإنسان يقصده بيده ، فعلمه حيلة الهرب واستعداد آلته ، وخلق له السمع الذى يسمع به خفيف حركة اليد وهى بعد بعيدة منه ، فيترك المص ويهرب ، ثم إذا سكنت اليد يعود . ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يبصر موضع غذائه فيقصده مع

(١) لم أجد له أصلا .

صغر حجم وجهه . وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره وكانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والغبار خلق للبعوض والذباب يدين فتنظر إلى الذباب فتراه على الدوام يمسح حدقتيه بيديه .

وأما الإنسان والحيوان الكبير ، فخلق لحدقتيه الأجفان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة ، فيجمع الغبار الذى يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب . وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتشبكها عند هيجان الغبار . فينظر من وراء شباك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار .

وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجفان وعلمها كيفية التصقيل باليدين ، ولأجل ضعف أبصارها تراها تتهافت على السراج ، لأن بصره ضعيف . فهى تطلب ضوء النهار . فإذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه فى بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت المظلم إلى الموضع المضىء ، فلا يزال يطلب الضوء ويرمى بنفسه إليه ، فإذا جاوزه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق . ولعلك تظن أن هذا لنقصانها وجهلها . فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها ، بل صورة الآدمى فى الإكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش فى التهافت على النار ، إذ تلوح للآدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدرى أن تحتها السم الناقع القاتل ، فلا يزال يرمى نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكا مؤبدا . فليت كان جهل الآدمى كجهل الفراش فإنها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت فى الحال . والآدمى يبقى فى النار أبد الآباد أو مدة مديدة . ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : « إِنِّى مُمْسِكٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَتَهَافَتُونَ فِيهَا تَهَافُتَ الْفَرَاشِ [١] » فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله تعالى فى أصغر

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة « مثلى ومثل أمتى كمثل رجل استوقد نارا =

الحيوانات ؛ وفيها من العجائب مالو اجتمع الأولون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جلية من ظاهر صورته . فأما خفايا معانى ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى . ثم فى كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لايشاركه فيها غيره .

فانظر إلى النحل وعجائبها ، وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . وكيف استخرج من لعابها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء . ثم لو تأملت عجائب أمرها فى تناولها الأزهار والأنوار واحترازها عن النجاسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملتها هو أكبرها شخصا وهو أميرها ، ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والإنصاف بينها ، حتى إنه ليقتل على باب المنفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب ، إن كنت بصيرا فى نفسك وفارغا من هم بطنك وفرجك وشهوات نفسك فى معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ، ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدس ، فلاتبنى بيتا مستديرا ولا مربعا ولامخمسا بل مسدسا لخاصية فى الشكل المسدس يقصر فهم المهندسين عن دركها ، وهو أن أوسع الأشكال وأحواها المستديرة وما يقرب منها ، فإن المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ، ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة . فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراصة . ولا شكل فى الأشكال ذوات الزوايا يقرب فى الاحتواء من المستدير ، ثم تتراص الجملة منه بحيث لايبقى بعد اجتماعها فرجة إلا المسدس ، وهذه خاصية هذا الشكل . فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطافة قده لطفا به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنأ بعيشه . فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه ! فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات ، ودع عنك عجائب ملكوت

= فجعلت الدواب والفراش يقعن فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه» لفظ مسلم واقتصر البخارى على أوله ولمسلم من حديث جابر « وأنا آخذ بحجزكم وأنتم تفلتون من يدى » .

الأرض والسموات ، فإن القدر الذى بلغه فهمنا القاصر منه تنقضى الأعمار دون إيضاحه ، ولا نسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به العلماء والأنبياء ، ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى بعلمه ، بل كل ماعرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علما فى جنب علم الله تعالى . فبالنظر فى هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين ، و بزيادة المعرفة تزداد المحبة . فإن كنت طالبا سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر فى الذكر الدائم والفكر اللازم . فعساك تحظى منها بقدر يسير ، ولكن تنال بذلك اليسير ملكا عظيما لا آخر له .

بيان السبب فى تفاوت الناس فى الحب

اعلم أن المؤمنين مشتركون فى أصل الحب لاشتراكهم فى أصل المحبة ، ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم فى المعرفة وفى حب الدنيا ، إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها ، وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التى قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها ، وربما تخيلوا لها معانى يتعالى عنها رب الأرباب ، وربما لم يطلعوا على حقيقتها ، ولا تخيلوا لها معنى فاسدا ، بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق ، واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث . وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والمتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم المقربون ، وقد ذكر الله حال الأصناف الثلاثة فى قوله تعالى : (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (١)) الآية . فإن كنت لا تفهم الأمور إلا بالأمثلة . فلنضرب لتفاوت الحب مثالا . فنقول :

أصحاب الشافعى مثلا يشتركون فى حب الشافعى رحمه الله الفقهاء منهم والعوام ، لأنهم مشتركون فى معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ، ولكن العامى يعرف علمه

(١) سورة الواقعة ، آية ٨٨ ، ٨٩

مجملا والفقيه يعرفه مفصلا ، فتكون معرفة الفقيه به أتم و إعجابه به وحبه له أشد ، فإن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لامحالة ومال إليـه قلبه ، فإن رأى تصنيفا آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لا محالة حبه ، لأنه تضاعفت معرفته بعلمـه ، وكذلك يعتقد الرجل فى الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه ، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبا ، وكذا سائر الصناعات والفضائل . والعامى قد يسمع أن فلانا مصنف وأنه حسن التصنيف ولـكن لايدرى مافى التصنيف ، فيكون له معرفة مجملة ، ويكون له بحسبه ميل مجمل ، والبصير إذا فتش عن التصانيف واطلع على مافيها من العجائب تضاعف حبه لامحالة ، لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف ، والعالم بجملته صنع الله تعالى وتصنيفه ، والعامى يعلم ذلك ويعتقده . وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى فى البعوض مثلا من عجائب صنعه مايبهر به عقله ، ويتحير فيه لبه ، ويزداد بسببه لا محالة عظمة الله وجلاله ، وكمال صفاته فى قلبه ، فيزداد له حبا . وكلما ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله ، وازداد به معرفة وله حبا ، وبحر هـذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له ، فلاجرم تفاوت أهـل المعرفة فى الحب لا حصر له . وممـا يتفاوت بسببه الحب اختلاف الأسباب الخمسة التى ذكرناها للحب ، فإن من يحب الله مثلا لـكونه محسنا إليه منعما عليه ولم يحبه لذاته ضعفت محبته ، إذ تتغير بتغير الإحسان ، فلا يكون حبه فى حالة البلاء كحبه فى حالة الرضا والنعماء . وأما من يحبه لذاته ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه ، فهذا وأمثاله هو سبب تفاوت الناس فى المحبـة ، والتفاوت فى المحبة هو السبب للتفاوت فى سعادة الآخرة . ولذلك قال تعالى : (وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا[1]) .

(١) سورة الإسراء ، آية ٢١

بيان السبب فى قصور أفهام الخلق

عن معرفة الله سبحانه

اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك ، فلابد من بيان السبب فيه ؛ وإنما قلنا إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا تفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الموجودات . فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة ، إذ صفاته الباطنة كشهوته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه ، وكل ذلك لا نعرفه ، وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلىّ عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس بشىء من الحواس الخمس ، ثم لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، فلو نظرنا إلى كل مافى العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد ، وهو مع ذلك جلى واضح ، ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهدله بالضرورة كل مانشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا فى حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء فى علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة ، وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد . وجميع مافى العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ، ودالة على علمه

وقدرته ولطفه وحكمته ، والموجودات المدركة لا حصر لها . فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسسنا به من حركة يده . فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور فى الوجود شىء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمته وجلاله ، إذ كل ذرة فإنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شىء مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه .

فإن ما تقصر عن فهمه عقولنا فله سببان :

أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله ، والآخر ما يتناهى وضوحه ، وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سببا لامتناع إبصاره . فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه . فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور . فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه . فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب . ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس . فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها وهى السواد والبياض وغيرها ، فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد وفى الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ، ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ؛ فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ؛ وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور، هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر فى نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ؛ فالله تعالى هو أظهر الأمور ، وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ، ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين . ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء . فهذا هو السبب فى قصور الأفهام .

وأما من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه فى حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس فى الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته فهى تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذى به وجود الأفعال كلها ، ومن هذه حاله فلا ينظر فى شىء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر ، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره ، كمن نظر فى شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث إثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى ، فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله ، لم يكن ناظرا إلا فى الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له ، وكان هو الموحد الحق الذى لا يرى إلا الله ،

بل لاينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبدالله ، فهذا الذى يقال فيه إنه فنى فى التوحيد و إنه فنى عن نفسه ، و إليه الإشارة بقول من قال : كنا بنا ففنينا عنا ، فبقينا بلا نحن ، فهذه أمورمعلومة عند ذوى البصائر ، أشكلت لضعف الأفهام عن دركها ، وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها و بيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام ؛ أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لايعنيهم ؛ فهذا هو السبب فى قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضم إليه أن المدركات كلها التى هى شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان فى الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهواته ؛ وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للعادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طبعا ، فقال سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه وأعضاءه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لخيف على عقله أن ينبهر لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها ، فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك فى الشهوات هو الذى سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة فى بحارها الواسعة ، فالناس فى طلبهم معرفة الله كالمدهوش الذى يضرب به المثل إذا كان راكبا لحماره وهو يطلب حماره ، والجليات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة ، فهذا سر هذا الأمر فليحقق ، ولذلك قيل :

فَقَدْ ظَهَرْتَ فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ... إلاّ عَلَى أَكْمَهٍ لاَ يَعْرِفُ الْقَمَرَا
لَـكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبًا ... فَـكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالْعُرْفِ قَدْ سُتِرَا

بيان معنى الشوق إلى الله تعالى

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلابد وأن ينكر حقيقة الشوق ، إذ لايتصور الشوق إلا إلى محبوب ؛ ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى ، وكون العارف مضطرا إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر و بطريق الأخبار والآثار . أما الاعتبار فيكفى فى إثباته ماسبق فى إثبات الحب ، فكل محبوب يشتاق إليه فى غيبته لامحالة . فأما الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإن الشوق طلب وتشوف إلى أمر الموجود لايطلب ، ولـكن بيانه أن الشوق لايتصور إلا إلى شىء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فأما ما لايدرك أصلا فلا يشتاق إليه ، فإن من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشتاق إليه ، وما أدرك بكماله لايشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرؤية ، فمن كان فى مشاهدة محبوبه مداوما للنظر إليه لايتصور أن يكون له شوق ، ولـكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه ، وهو من وجهين لاينكشف إلا بمثال من المشاهدات .

فنقول مثلا : من غاب عنه معشوقه و بقى فى قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية ، فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يتصور أن يشتاق إليه ، ولو رآه لم يتصور أن يشتاق فى وقت الرؤية ؛ فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله ، فـكذلك قد يراه فى ظلمة بحيث لاينكشف له حقيقة صورته ، فيشتاق إلى استكمال رؤيته وتمام الانكشاف فى صورته بإشراق الضوء عليه .

والثانى أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلا ولا سائر محاسنه ، فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت فى نفسه خيال صادر عن الرؤية ، ولـكنه يعلم أن له عضوا وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية ، فيشتاق إلى أن ينكشف له مالم يره قط ، والوجهان جميعا متصوران فى حق الله تعالى ، بل هما لازمان بالضرورة لـكل العارفين ، فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان فى غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق

فلا يكون متضحا غاية الاتضحاح ، بل يكون مشوبا بشوائب التخيلات . فإن الخيالات لاتفتر فى هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات ، وهى مكدرات للمعارف ، ومنغصات . وكذلك ينضاف إليها شواغل الدنيا ، فإنما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلى ، ولا يكون ذلك إلا فى الآخرة ، وذلك بالضرورة يوجب الشوق ، فإنه منتهى محبوب العارفين . فهذا أحد نوعى الشوق وهواستكمال الوضوح فيمااتضح اتضاحاما .

الثانى : أن الأمور الإلهية لانهاية لها ، وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة ، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ، ويعلم أن ماغاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر ، فلا يزال متشوقا إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقى من المعلومات التى لم يعرفها أصلا ، لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة .

والشوق الأول ينتهى فى الدار الآخرة بالمعنى الذى يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ، ولا يتصور أن يسكن فى الدنيا . وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين ، فقال : قلت ذات يوم يارب إن أعطيت أحدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطنى ذلك فقد أضر بى القلق ، قال : فرأيت فى النوم أنه أوقفنى بين يديه وقال : يا إبراهيم أما استحييت منى أن تسألنى أن أعطيك مايسكن به قلبك قبل لقائى؟ وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ؟ فقلت يارب تهت فى حبك فلم أدر ما أقول فاغفر لى وعلمنى ما أقول ، فقال : قل اللهم رضنى بقضائك وصبرنى على بلائك وأوزعنى شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن فى الآخرة .

وأما الشوق الثانى فيشبه أن لا يكون له نهاية لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذ نهايته أن ينكشف للعبد فى الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ماهو معلوم لله تعالى وهو محال ، لأن ذلك لانهاية له ، ولا يزال العبد عالما بأنه بقى من الجمال والجلال ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال ، فهو يجد لذلك شوقا لذيذا لا يظهر فيه ألم ، ولا يبعد أن تكون ألطاف الكشف والنظر متوالية إلى غير نهاية ، فلا يزال النعيم واللذة

متزايدا أبد الآباد ، وتكون لذة مايتجدد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل ، وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف فى الدنيا أصلا ، فإن كان ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام ، وقوله سبحانه وتعالى : (نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا[١]) محتمل لهذا المعنى ، وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ؛ ويحتمل أن يكون المراد به إتمام النور فى غير مااستنار فى الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والإشراق ، فيكون هو المراد بتمامه ، وقوله تعالى : (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا[٢]) يدل على أن الأنوار لابد وأن يتزود أصلها فى الدنيا ثم يزداد فى الآخرة إشراقا ، فأما أن يتجدد نور فلا ، والحكم فى هذا برجم الظنون مخطر ، ولم ينكشف لنا فيه بعد مايوثق به . فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ، ويرينا الحق حقا . فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه .

وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى . فمما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ[٣] » .

وقال أبو الدرداء لكعب : أخبرنى عن أخص آية ؟ يعنى فى التوراة ، فقال : يقول الله تعالى : طال شوق الأبرار إلى لقائى و إنى إلى لقائهم لأشد شوقا . قال : ومكتوب إلى جانبها : من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء : أشهد أنى لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا .

---

(١) سورة التحريم ، آية ٨ (٢) سورة المجادلة ، آية ١٣

(٣) أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى قال : ياداود أبلغ أهل أرضى أنى حبيب لمن أحبنى وجليس لمن جالسنى ، ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبنى ومختار لمن اختارنى ومطيع لمن أطاعنى ؛ ماأحبنى عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى ، وأحببته حبا لايتقدمه أحد من خلقى . من طلبنى بالحق وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى، فارفضوا ياأهل الأرض ماأنتم عليه من غرورها ، وهلموا إلى كرامتى ومصاحبتى ومجالستى ، وائنسوا بى أؤانسكم وأسارع إلى محبتكم ، فإنى خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلى ، وموسى نجيى ، ومحمد صفيى . وخلقت قلوب المشتاقين من نورى ، ونعمتها بجلالى .

وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصدّيقين : إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلىّ وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكرهم وينظرون إلىّ وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال : يارب وما علامتهم ؟ قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام ، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلىّ أقدامهم وافترشوا لى وجوههم وناجونى بكلامى وتملقوا إلىّ بإنعامى ، فبين صارخ وباك ، وبين متأوه وشاك ، وبين قائم وقاعد ، وبين راكع وساجد ، بعينى ما يتحملون من أجلى ، وبسمعى ما يشتكون من حبى ، أول ماأعطيهم ثلاث : أقذف من نورى فى قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض ومافيها فى موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهى عليهم ، فترى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ .

وفى أخبار داود عليه السلام : إن الله تعالى أوحى إليه : ياداود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألنى الشوق إلىّ ؟ قال : يارب من المشتاقون إليك ؟ قال : إن المشتاقين إلىّ الذين

صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلىّ خرقا ينظرون إلىّ ، وإنى لأحمل قلوبهم بيدى فأضعها على سمائى ثم أدعو نجباء ملائكتى ، فإذا اجتمعوا سجدوا لى، فأقول إنى لم أدعكم لتسجدوا لى ولكنى دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىّ ، وأباهى بكم أهل الشوق إلىّ ، فإن قلوبهم لتضىء فى سمائى لملائكتى كما تضىء الشمس لأهل الأرض . ياداود إنى خلقت قلوب المشتاقين من رضوانى ونعمتها بنور وجهى ، فاتخذتهم لنفسى محدثىّ ، وجعلت أبدانهم موضع نظرى إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلىّ يزدادون فى كل يوم شوقا . قال داود : يارب أرنى أهل محبتك ، فقال : ياداود ائت جبل لبنان ، فإن فيه أربعة عشر نفسا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول . فإذا أتيتهم فأقرئهم منى السلام ، وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم : ألا تسألون حاجة فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى ؟ أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم ، فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون فى عظمة الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه ، وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنى رسول الله إليكم ، يقرئكم السلام ، ويقول لكم : ألا تسألون حاجة ؟ ألا تنادونى أسمع صوتكم وكلامكم ؟ فإنكم أحبائى وأصفيائى وأوليائى ، أفرح لفرحكم ، وأسارع إلى محبتكم ، وأنظر إليكم فى كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة . قال : فجرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فاغفر لنا ماقطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك ، فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك ، نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترئ على الدعاء وقد علمت أنه لاحاجة لنا فى شىء من أمورنا ، فأدم لنا لزوم الطريق إليك ، وأتمم بذلك المنة علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون فى طلب رضاك فأعنا علينا بجودك . وقال الآخر : من

نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكر فى عظمتك ، أفيجترئ على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكر فى جلالك ؟ وطلبتنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كلت ألسنتنا عن دعائك ، لعظم شأنك ، وقربك من أوليائك ، وكثرة منتك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك ، فاغفر لنا تقصيرنا فى شكرك ، وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا ، إنما هى النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترئ العبد على سيده ، إذ أمرتنا بالدعاء بجودك فهب لنا نورا نهتدى به فى الظلمات من أطباق السموات . وقال الآخر : ندعوك أن تقبل علينا وتديمه عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال الآخر : لا حاجة لنا فى شىء من خلقك ، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر : أسألك من بينهم أن تعمى عينى عن النظر إلى الدنيا وأهلها ، وقلبى عن الاشتغال بالآخرة . وقال الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أولياءك ، فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شىء دونك .

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قل لهم قد سمعت كلامكم ، وأجبتكم إلى ما أحببتم ، فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا ، فإنى كاشف الحجاب فيما بينى و بينكم حتى تنظروا إلى نورى وجلالى . فقال داود : يارب بم نالوا هذا منك ؟ قال : بحسن الظن ، والكف عن الدنيا وأهلها ، والخلوات بى ، ومناجاتهم لى ، وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهلها ، ولم يشتغل بشىء من ذكرها ، وفرغ قلبه لى ، واختارنى على جميع خلقى ، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بينى وبينه ، حتى ينظر إلىّ نظر الناظر بعينه إلى الشىء ، وأريه كرامتى فى كل ساعة ، وأقربه من نور وجهى ، إن مرض مرّضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به ياداود عميت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه ، لا يفتر عن الاشتغال بى . يستعجلنى القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظرى من بين خلقى ، لا يرى غيرى ولا أرى غيره ؛ فلو رأيته ياداود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفا وعبادة ؛ وعزتى وجلالى ياداود لأقعدنه فى الفردوس ولأشفين صدره من النظر إلىّ حتى يرضى وفوق الرضى .

وفى أخبار داود أيضا : قل لعبادى المتوجهين إلى محبتى ، ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفعت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلىّ بعيون قلوبكم ؟ وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم ؟ وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضائى .

وفى أخبار داود أيضا : إن الله تعالى أوحى إليه : تزعم أنك تحبنى ، فإن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب . ياداود خالص حبيبى مخالصة ، وخالط أهل الدنيا مخالطة ، ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبتى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقا ، على أنى أسارع إلى سياستك وتقويمك ، وأكن قائدك ودليلك ، أعطيك من غير أن تسألنى ، وأعينك على الشدائد ؛ وإنى قد حلفت على نفسى أنى لا أثيب إلا عبدا قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدىّ وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك ، وأسكن الغنى قلبك ؛ فإنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلا وكلته إليها ، أضف الأشياء إلىّ ، لا تضاد عملك فتكون متعنيا ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتى حدا فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطك ، ولا تجد للزيادة منى حدا ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب ، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عندى أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ضعنى بين عينيك وانظر إلىّ ببصر قلبك ، ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنى فأسرجوها وسخت بانقطاع ثوابى عنها ، فإنى حلفت بعزتى وجلالى لا أفتح ثوابى لعبد دخل فى طاعتى للتجربة والتسويف ، تواضع لمن

تعلمه ، ولا تطاول على المريدين، فلو علم أهل محبتى منزلة المريدين عندى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . ياداود لأن تخرج مريدا من سكرة هو فيها تستنقذه فأ كتبك عندى جهيدا ومن كتبته عندى جهيداً لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين . ياداود : تمسك بكلامى ، وخذ من نفسك لنفسك لاتؤتين منها فأحجب عنك محبتى ، لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى ، فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقى ، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنها تنقص حلاوة مناجاتى، وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول، أدنى مايصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى ، فإنى لم أرض الدنيا لحبيبى ونزّهته عنها . ياداود : لا تجعل بينى و بينك عالما يحجبك بسكره عن محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين ، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإفطار ، فإن محبتى للصوم إدمانه . ياداود : تحبب إلىّ بمعاداة نفسك، امنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بينى و بينك مرفوعة ، إنما أداريك مداراة لتقوى على ثوابى إذا مننت عليك به ، وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتى .

وأوحى الله تعالى إلى داود : ياداود لو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقا إلىّ وتقطعت أوصالهم من محبتى . يا داود : هذه إرادتى فى المدبرين عنى ، فكيف إرادتى فى المقبلين علىّ ؟ ياداود أحوج مايكون العبد إلىّ إذا استغنى عنى ، وأرحم ما أكون بعبدى إذا أدبر عنى ، وأجلّ ما يكون عندى إذا رجع إلىّ . فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإنما تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

بيان محبة الله للعبد ومعناها

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده ، فلابد من معرفة معنى ذلك . ولنقدم الشواهد على محبته . فقد قال الله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ[1]) . وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا[2]) وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ[3]) ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله فقال : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ[4]) وقد روى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا لَمْ يَضُرَّهُ ذَنْبٌ، وَالتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ ، ثم تلا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ[5] » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضى بعد الإسلام ، وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ[6]) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ[7] » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ اللَّهُ[8] » وقال عليه الصلاة والسلام « قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ

---

(١) سورة المائدة ، آية ٥٤ (٢) سورة الصف ، آية ٤

(٣) سورة البقرة ، آية ٢٢٢ (٤) سورة المائدة ، آية ١٨

(٥) ذكره صاحب الفردوس ، ولم يخرّجه ولده فى مسنده . وروى ابن ماجه الشطر الثانى من حديث ابن مسعود ، وتقدم فى التوبة . (٦) سورة آل عمران ، آية ٣١

(٧) الحاكم وصحح إسناده والبيهقى فى الشعب من حديث ابن مسعود .

(٨) ابن ماجه من حديث أبى سعيد بإسناد حسن دون قوله : ومن أكثر إلى آخره ، ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة ، وفيه ابن لهيعة .

حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ (١) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ماشئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر . وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشىء الموافق . والعشق عبارة عن الميل الغالب المفرط . وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ؛ فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا ، بل الأسامى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطلق عليهما بمعنى واحد أصلا ، حتى إن اسم الوجود الذى هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى ، فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود المتبوع ، وإنما الاستواء فى إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر فى اسم الجسم ، إذ معنى الجسمية وحقيقتها متشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا ، فليست الجسمية لأحدهما مستفادة من الآخر ، وليس كذلك اسم الوجود لله ولا لخلقه ، وهذا التباعد فى سائر الأسامى أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها ، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق ؛ وواضع اللغة إنما وضع هذه الأسامى أولا للخلق . فإن الخلق أسبق إلى العقول والأفهام من الخالق ، فكان استعمالها فى حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل ، والمحبة فى وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم ، وهذا إنما يتصور فى نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كمالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى ، فإن كل كمال وجمال وبهاء وجلال ممكن فى حق الإلهية ، فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ، ولا يتصور تجدده ولا زواله ، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره ، بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط ، وليس

(١) البخارى من حديث أبى هريرة ، وقد تقدم .

فى الوجود إلا ذاته وأفعاله . ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الميهنى رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) فقال بحق يحبهم ، فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس فى الوجود غيره ، فمن لا يحب إلا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هى متعلقة بذاته ، فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ فى حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به فى الأزل ، فحبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الإرادة الأزلية التى اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب ، وإذا أضيف إلى فعله الذى يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضى له كما قال تعالى : « لاَ يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ » فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله فى درجة القرب من ربه ، فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال ؛ وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له فى كل وقت فى حضور بساطه لميل الملك إليه ، إما لينصره بقوته ، أو ليستريح بمشاهدته ، أو ليستشيره فى رأيه ، أو ليهيئ أسباب طعامه وشرابه . فيقال إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق الملائم له ، وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به ، ولكن لكون العبد فى نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والخصال الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه ، مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا ؛ فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحبب نفسه إلى الملك ، فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثانى لا بالمعنى الأول ، وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثانى بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب ، فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى ، والقرب من الله فى البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم

الأخلاق التى هى الأخلاق الإلهية ، فهو قرب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريبا فصار قريبا فقد تغير ، فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن ، وهو محال فى حق الله تعالى ، إذ التغير عليه محال ، بل لا يزال فى نعوت الكمال والجلال على ما كان عليه فى أزل الآزال ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال فى القرب بين الأشخاص ، فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعا ، وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير فى أحدهما من غير تغير فى الآخر ، بل القرب فى الصفات أيضا كذلك ، فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه فى كمال العلم وجماله ، والأستاذ واقف فى كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه ، والتلميذ متحرك مترقٍّ من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم ، فلا يزال دائبا فى التغير والترقى إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير ، فكذلك ينبغى أن يفهم ترقى العبد فى درجات القرب ، فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور ، وأثبت قوة فى قهر الشيطان وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله ، وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك فى حق الله محال ، فإنه لا نهاية لكماله ، وسلوك العبد فى درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود ، فلا مطمع له فى المساواة ، ثم درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضا لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال ، فإذن محبة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشواغل والمعاصى عنه ، وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ، ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه .

وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له ، فلا جرم يشتاق إلى ما فاته ، وإذا أدرك منه شيئا يلتذ به ، والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى .

فإن قلت : محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول : يستدل

عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ ، فإذا أحبَّهُ الحبَّ البالغ اقتناه ، قيل : وما اقتناه ؟ قال : لم يترك له أهلاً ولا مالاً [1] » فعلامة محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره .

قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حماراً فتركبه ؟ فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغلنى عن نفسه بحمار ، وفى الخبر : « إذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضى اصطفاه [2] » . وقال بعض العلماء : إذا رأيتك تحبه ورأيته يبتليك فاعلم أنه يريد يصافيك . وقال بعض المريدين لأستاذه : قد طولعت بشىء من المحبة ، فقال : يابنى هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إياه ؟ قال لا ، قال فلا تطمع فى المحبة ، فإنه لا يعطيها عبدا حتى يبلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أحب الله عبدا جعل له واعظاً من نفسه ، وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه [3] » وقد قال « إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه [4] » فأخص علاماته حبه لله ، فإن ذلك يدل على حب الله .

وأما الفعل الدال على كونه محبوبا فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه ، والمدبر لأمره ، والمزين لأخلاقه ، والمستعمل لجوارحه ، والمسدد لظاهره وباطنه ، والجاعل همومه هما واحدا ، والمبغض للدنيا فى قلبه ، والموحش له من غيره ، والمؤنس له بلذة المناجاة فى خلواته ، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته ، فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد . فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فإنها أيضا علامات حب الله للعبد .

---

(١) الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى ، وقد تقدم .

(٢) ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ، ولم يخرجه ولده فى مسنده .

(٣) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة باسناد حسن بلفظ « إذا أراد الله بعبد خيرا »

(٤) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بزيادة فيه باسناد ضعيف .

القول فى علامات محبة العبد لله تعالى

اعلم أن المحبة يدّعيها كل واحد ، وما أسهل الدعوى ، وما أعز المعنى ، فلا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ، مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة ، والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وثمارها تظهر فى القلب واللسان والجوارح ، وتدل تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة .

فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة فى دار السلام ، فلا يتصور أن يحب القلب محبوبا إلا ويحب مشاهدته ولقاءه ، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت ، فينبغى أن يكون محبا للموت غير فارّ منه ، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه ، ليتنعم بمشاهدته ، والموت مفتاح اللقاء ، وباب الدخول إلى المشاهدة . قال صلى الله عليه وسلم « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ[1] » وقال حذيفة عند الموت : حبيب جاء على فاقة ، لا أفلح من ندم . وقال بعض السلف : مامن خصلة أحب إلى الله أن تكون فى العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود ، فقدم حب لقاء الله على السجود ، وقد شرط الله سبحانه لحقيقة الصدق فى الحب القتل فى سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله ، فجعل القتل فى سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا) وقال عز وجل (يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ[2]) .

وفى وصية أبى بكر لعمر رضى الله تعالى عنهما : الحق ثقيل وهو مع ثقله مرىء ، والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء ، فإن حفظت وصيتى لم يكن غائب أحب إليك من الموت

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة وعائشة . (٢) سورة التوبة ، آية ١١١ .

وهو مدركك ، وإن ضيعت وصيتى لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه . ويروى عن إسحاق بن سعد بن أبى وقاص قال : حدثنى أبى أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد : ألا ندعو الله فخلوا فى ناحية فدعا عبدالله بن جحش فقال: يا رب إنى أقسمت عليك إذا لقيت العدوّ غدا فلقنى رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلنى ثم يأخذنى فيجدع أنفى وأذنى ويبقر بطنى ، فإذا لقيتك غدا قلت يا عبد الله من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك يا رب وفى رسولك ، فتقول صدقت، قال سعد : فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقتان فى خيط[1] ، قال سعيد بن المسيب أرجو أن يبرّ الله آخر قسمه كما أبر أوله . وقد كان الثورى وبشر الحافى يقولان : لا يكره الموت إلا مريب ، لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البويطى لبعض الزهاد : أتحب الموت ؟ فكأنه توقف ، فقال : لو كنت صادقا لأحببته ، وتلا قوله تعالى : (فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ[2]) فقال الرجل فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ[3] » فقال إنما قاله لضر نزل به ، لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه .

فإن قلت : من لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والمال والولد ، وهذا ينافى كمال حب الله تعالى ، لأن الحب الكامل هو الذى يستغرق كل القلب ، ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة ، فإن الناس متفاوتون فى الحب . ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوّج أخته فاطمة من سالم مولاه عاتبته قريش فى ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى ؟

(١) الطبرانى ، ومن طريقه أبو نعيم فى الحلية وإسناده جيد .
(٢) سورة البقرة ، آية ٩٤ (٣) متفق عليه من حديث أنس ، وقد تقدم .

فقال والله لقد أنكحته إياها وإنى لأعلم أنه خير منها ، فكان قوله ذلك أشد عليهم من فعله ، فقالوا وكيف وهى أختك وهو مولاك ؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ يُحِبُّ اللهَ بِكُلِّ قَلْبِهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى سَالِمٍ[1] » فهذا يدل على أن من الناس من لايحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره ، فلا جرم يكون نعيمه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه ، وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها . وأما السبب الثانى للكراهة : فهو أن يكون العبد فى ابتداء مقام المحبة ، وليس يكره الموت وإنما يكره عجلته قبل أن يستعد للقاء الله ، فذلك لايدل على ضعف الحب ، وهو كالمحب الذى وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق . فالكراهة بهذا السبب لا تنافى كمال الحب أصلا . وعلامته الدءوب فى العمل واستغراق الهم فى الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه ، فيلزم مشاقّ العمل ، ويجتنب اتباع الهوى ، ويعرض عن دعة الكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة الله ، ومتقربا إليه بالنوافل ، وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيد القرب فى قلب محبوبه ، وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال : (يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2]) ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قال :

أُرِيدُ وِصَالَهُ وَيُرِيدُ هَجْرِى ... فَأَتْرُكُ مَا أُرِيدُ لِمَا يُرِيدُ

(1) لم أره من حديث حذيفة . وروى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه من حديث عمر : « إن سالما يحب الله حقا من قلبه» وفى رواية له « إن سالما شديد الحب لله عز وجل لو لم يخف الله عز وجل ما عصاه» وفيه عبد الله بن لهيعة . (2) سورة الحشر ، آية ٩ .

بل الحب إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب ، كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهارا فتدافعه إلى الليل ، فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى النهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه ، فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها : إن الله جل ذكره أمرنى بذلك وأخبرنى أنه مخرج منك ولدين وجاعلهما نبيين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك وجعلنى طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى فعندها سكنت إليه ؛ فإذن من أحب الله لايعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تَعْصِى الْإِلٰهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هٰذَا لَعَمْرِى فى الْفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وفى هذا المعنى قيل أيضا :

وَأَتْرُكُ مَا أَهْوَى لِمَا قَدْ هَوِيتَهُ ... فَأَرْضَى بِمَا تَرْضَى وَإِنْ سَخِطَتْ نَفْسِى

وقال سهل رحمه الله تعالى : علامة الحب إيثاره على نفسك ، وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيبا ، وإنما الحبيب من اجتنب المناهى ، وهو كما قال ، لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له ، كما قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وإذا أحبه الله تولاه ونصره على أعدائه ، وإنما عدوه نفسه وشهواته ، فلا يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته ، ولذلك قال تعالى : (وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ، وَكَفَى بِاللهِ وَلِيًّا ، وَكَفَى بِاللهِ نَصِيرًا[1]) فإن قلت : فالعصيان هل يضاد أصل المحبة ؟ فأقول : إنه يضاد كمالها ، ولا يضاد أصلها ، فكم من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل مايضره مع العلم بأنه يضره ، وذلك لايدل على عدم حبه لنفسه ، ولكن المعرفة قد تضعف والشهوة

(1) سورة النساء ، آية ٤٥

قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل عليه ما روى : « أَنَّ نُعَيْمَانَ كَانَ يُؤْتَى بِهِ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فى كُلِّ قَلِيلٍ فَيَحُدُّهُ فى مَعْصِيَةٍ يَرْتَكِبُهَا إِلَى أَنْ أُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَحَدَّهُ فَلَعَنَهُ رجلٌ وقال : مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلّم ، فقال صلى اللهُ عليه وسلّم : لا تَلْعَنْهُ فإنّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ[1] » فلم يخرجه بالمعصية عن المحبة ، نعم تخرجه المعصية عن كمال الحب ، وقد قال بعض العارفين : إذا كان الإيمان فى ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا ، فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصى .

وبالجملة فى دعوى المحبة خطر ، ولذلك قال الفضيل : إذا قيل لك أتحب الله تعالى فاسكت ، فإنك إن قلت لا كفرت ، وإن قلت نعم فليس وصفك وصف المحبين ، فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء : ليس فى الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ، ولا فى جهنم عذاب أشد من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبة ، ولم يتحقق بشىء من ذلك .

ومنها أن يكون مستهترا بذكر الله تعالى ، لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه ، فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذى هو كلامه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه ، فإن من يحب إنسانا يحب كلب محلته . فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحبوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه ، وذلك ليس شركة فى الحب ، فإن من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يجاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ، ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه ، فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين ؟ وقد ذكرنا تحقيق هذا فى كتاب

(١) البخارى ، وقد تقدم .

الأخوة والصحبة ، ولذلك قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ وَأَحِبُّونِى لِلهِ تعالى » وقال سفيان : من أحب من يحب الله تعالى فإنما أحب الله ، ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنما يكرم الله تعالى .

وحكى عن بعض المريدين قال : كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فى سن الإرادة ، فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتنى فترة فانقطعت عن التلاوة ، قال : فسمعت قائلا يقول فى المنام : إن كنت تزعم أنك تحبنى فلم جفوت كتابى ؟ أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابى ؟ قال : فانتبهت وقد أشرب فى قلبى محبة القرآن ، فعاودت إلى حالى .

وقال ابن مسعود : لا ينبغى أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل ، وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله .

وقال سهل رحمة الله تعالى عليه : علامة حب الله حب القرآن ، وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبى صلى اللهُ عليه وسلم ، وعلامة حب النبى صلى اللهُ عليه وسلم حب السنة ، وعلامة حب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغة إلى الآخرة .

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه ، فيواظب على التهجد ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق ، وأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته ، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟ قيل لإبراهيم بن أدهم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله .

وفى أخبار داود عليه السلام : لا تستأنس إلى أحد من خلقى ، فإنى إنما أقطع عنى رجلين : رجلا استبطأ ثوابى فانقطع ، ورجلا نسينى فرضى بحاله ، وعلامة ذلك أن أكله

إلى نفسه وأن أدعه فى الدنيا حيران ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبته . وفى قصة برخ وهو العبد الأسود الذى استسقى به موسى عليه السلام أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام : إن برخا نعم العبد هو لى إلا أن فيه عيبا ، قال يا رب وما عيبه ؟ قال يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه ، ومن أحبنى لم يسكن إلى شىء .

وروى أن عابدا عبد الله تعالى فى غيضة دهرا طويلا فنظر إلى طائر وقد عشش فى شجرة يأوى إليها ويصفر عندها ، فقال لو حولت مسجدى إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر ، قال ففعل ، فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان : قل لفلان العابد استأنست بمخلوق ، لأحطنك درجة لا تنالها بشىء من عملك أبدا ، فإذن علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة به وكمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة ويعوق عن لذة المناجاة ، وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بلذة المناجاة كالذى يخاطب معشوقه ويناجيه .

وقد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى كان فى صلاته ووقع الحريق فى داره فلم يشعر به . وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو فى الصلاة فلم يشعر به ، ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه يدفع بها جميع الهموم ، بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الولهان ، فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه فى الباطن بذكر حبيبه . فالمحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة فى قوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ[1]) قال هشت إليه واستأنست به .

وقال الصديق رضى الله تعالى عنه : من ذاق من خالص محبة الله شغله ذلك عن

(1) سورة الرعد ، آية ٢٨

طلب الدنيا ، وأوحشه عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبى بكر : المحب لا يسأم من حديث حبيبه .

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : قد كذب من ادعى محبتى إذا جنه الليل نام عنى ، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبنى .

وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك ؟ فقال إذا قصدت فقد وصلت .

وقال يحيى بن معاذ : من أحب الله أبغض نفسه . وقال أيضا : من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ، ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق ، والعبادة على خدمة الخلق .

ومنها أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته ، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والاستعتاب والتوبة .

قال بعض العارفين : إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت ، فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم ، إذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فبحسن تدبيره لهم ، وحق المحب إذا رجع من غفلته فى لحظته أن يقبل على محبوبه ويشتغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأى ذنب قطعت برك عنى وأبعدتنى عن حضرتك وشغلتنى بنفسى وبمتابعة الشيطان ؟ فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ما سبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ، ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا منه لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته ويذكر قوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ).

ومنها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها ويسقط عنه تعبها ، كما قال بعضهم : كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد : علامة المحب دوام النشاط

والدءوب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم : العمل على المحبة لا يدخله الفتور . وقال بعض العلماء : والله ما اشتفى محب لله من طاعته ولو حل بعظيم الوسائل ، فكل هذا وأمثاله موجود فى المشاهدات ، فإن العاشق لا يستثقل السعى فى هوى معشوقه ويستلذ خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تعاوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به ، فهكذا يكون حب الله تعالى ؛ فإن كل حب صار غالبا قهر لامحالة ماهو دونه ، فمن كان محبوبه أحب إليه من الكسل ترك الكسل فى خدمته ، وإن كان أحب إليه من المال ترك المال فى حبه .

وقيل لبعض المحبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شىء : ما كان سبب حالك هذه فى المحبة ؟ فقال : سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبه وهو يقول أنا والله أحبك بقلبى كله وأنت معرض عنى بوجهك كله ، فقال له المحبوب : إن كنت تحبنى فإيش تنفق على ؟ قال : يا سيدى أملكك ما أملك ثم أنفق عليك روحى حتى تهلك ، فقلت هذا خلق لخلق وعبد لعبد فكيف بعبيد لمعبود ؟ فكل هذا بسببه .

ومنها أن يكون مشفقا على جميع عباد الله ، رحيما بهم ، شديدا على جميع أعداء الله وعلى كل من يقارف شيئا مما يكرهه كما قال الله تعالى : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ولا تأخذه لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، وبه وصف الله أولياءه إذ قال : الذين يكلفون بحبى كما يكلف الصبى بالشىء ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد ، فإنه لايبالى قل الناس أوكثروا فانظر إلى هذا المثال ، فإن الصبى إذا كلف بالشىء لم يفارقه أصلا ، وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه ، فإن نام أخذه معه فى ثيابه ، فإذا انتبه عاد وتمسك به ، ومهما فارقه بكى ، ومهما وجده ضحك ، ومن نازعه فيه أبغضه ، ومن أعطاه أحبه . وأما النمر فإنه لايملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه ، فهذه علامات المحبة ، فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه ، فصفا

فى الآخرة شرابه وعذب مشربه ، ومن امتزج بحبه حب غير الله تنعم فى الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقربين كما قال تعالى فى الأبرار : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١)) ثم قال : (يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢)) فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الذى هو للمقربين ، والشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان ، كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال : (إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (٣)) ثم قال : (يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٤)) فكان أمارة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهده المقربون ، وكما أن الأبرار يجدون المزيد فى حالهم ومعرفتهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم . فكذلك يكون حالهم فى الآخرة (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ (٥)) . (كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ (٦)) وكما قال تعالى : (جَزَاءً وِفَاقًا (٧)) أى وافق الجزاء أعمالهم ؛ فقوبل الخالص بالصرف من الشراب ، وقوبل المشوب بالمشوب ، وشوب كل شراب على قدر ماسبق من الشوب فى حبه وأعماله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)) . (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٩)) و (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا (١٠)) . (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (١١)) .

فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والحور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ

---

(١) سورة المطففين ، آية ٢٢ (٢) سورة المطففين ، آية ٢٥-٢٨
(٣) سورة المطففين ، آية ١٨ (٤) سورة المطففين ، آية ٢١
(٥) سورة لقمان ، آية ٢٨ (٦) سورة الأنبياء ، آية ١٠٤
(٧) سورة النبأ ، آية ٢٦ (٨) سورة الزلزال ، آية ٧ ، ٨
(٩) سورة الرعد ، آية ١١ (١٠) سورة النساء ، آية ٤٠
(١١) سورة الأنبياء ، آية ٤٧

منها حيث يشاء ، فيلعب مع الولدان ويتمتع بالنسوان، فهناك تنتهى لذته فى الآخرة، لأنه إنما يعطى كل إنسان فى الجنة ما تشتهيه نفسه وتلذ عينه ، ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يغلب عليه إلا حبه بالإخلاص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ؛ فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتنعمون فى الجنان مع الحور العين والولدان ، والمقربون ملازمون للحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها ، فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون، وبالمجالسة أقوام آخرون، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْبُلْهُ وَعِلِّيُّونَ لِذَوِى الْأَلْبَابِ[١] » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) كما قال تعالى : (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ[٢]) .

ومنها أن يكون فى حبه خائفا متضائلا تحت الهيبة والتعظيم ، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك ، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة ، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لغيرهم ، وبعض مخاوفهم أشد من بعض . فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب ، وأشد منه خوف الإبعاد ، وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد المحبين[٣] إذ سمع قوله تعالى (أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ[٤]) (أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[٥]) وإنما يعظم هيبة البعد وخوفه فى قلب من ألف القرب وذاقه وتنعم به ، فحديث البعد فى حق المبعدين يشيب سماعه أهل القرب فى القرب ولا يحن إلى القرب من ألف البعد ، ولا يبكى لخوف البعد من لم يمكن من بساط القرب

(١) البزار من حديث أنس بسند ضعيف مقتصرا على الشطر الأول ، وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى ، ولعله أدرج فيه .

(٢) سورة القارعة ، آية ١ — ٣

(٣) حديث «شيبتنى هود» أخرجه الترمذى ، وقد تقدم غير مرة

(٤) سورة هود عليه السلام ، آية ٦٨ (٥) سورة هود عليه السلام ، آية ٩٥

ثم خوف الوقوف وسلب المزيد ، فإنا قدمنا أن درجات القرب لا نهاية لها ، وحق العبد أن يجتهد فى كل نفس حتى يزداد فيه قربه ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ ، وَمَنْ كَانَ يَوْمُهُ شَرًّا مِنْ أَمْسِهِ فَهُوَ مَلْعُونٌ[١] » . وكذلك قال عليه الصلاة والسلام « إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى فِى الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ سَبْعِينَ مَرَّةً[٢] » وإنما كان استغفاره من القدم الأول فإنه كان بعدا بالإضافة إلى القدم الثانى ، ويكون ذلك عقوبة لهم على الفتور فى الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى « أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ إِنَّ أَدْنَى مَا أَصْنَعُ بِالْعَالِمِ إِذَا آثَرَ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِى أَنْ أَسْلُبَهُ لَذِيذَ مُنَاجَاتِى » فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، فأما الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى ما ظهر من مبادئ اللطف ، وذلك هو المكر الخفى الذى لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ، ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته .

سمع إبراهيم بن أدهم قائلا يقول وهو فى سياحته وكان على جبل :

كُلُّ شَىْءٍ مِنْكَ مَغْفُو ... رٌ سِوَى الْإِعْرَاضِ عَنَّا
قَدْ وَهَبْنَا لَكَ مَا فَا ... تَ فَهَبْ مَا فَاتَ مِنَّا

فاضطرب وغشى عليه ، فلم يفق يوما وليلة وطرأت عليه أحوال ، ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ، ثم خوف السلو عنه ، فإن المحب يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد ولا يتسلى إلا بلطف جديد ، فإن تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته ، والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر ، فإن هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية

(١) لا أعلم هذا إلا فى منام لعبد العزيز بن أبى رواد قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت يارسول الله أوصنى ، فقال ذلك بزيادة فى آخره رواه البيهقى فى الزهد (٢) متفق عليه من حديث الأغر ، وقد تقدم .

ليس فى قوة البشر الاطلاع عليها ، فإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ماورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويغتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان ، فكل ذلك من جنود الشيطان التى تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكر والبيان ، وكما أن من أوصاف الله تعالى مايظهر فيقتضى هيجان الحب ، وهى أوصاف اللطف والرحمة والحكمة ، فمن أوصافه مايلوح فيورث السلو كأوصاف الجبرية والعزة والاستغناء ، وذلك من مقدمات المكر والشقاء والحرمان ، ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو المقت ، والسلو عنه مقدمة هذا المقام ، والإعراض والحجاب مقدمة السلو ، وضيق الصدر بالبر وانقباضه عن دوام الذكر وملاله لوظائف الأوراد أسباب هذه المعانى ومقدماتها ، وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام المقت ، نعوذ بالله منه ، وملازمة الخوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب ، فإن من أحب شيئا خاف لا محالة فقده ، فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب مما يمكن فواته . وقد قال بعض العارفين : من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ، ومن عبده من طريق المحبة والخوف أحبه الله تعالى فقربه ومكنه وعلمه ، فالمحب لايخلو عن خوف ، والخائف لايخلو عن محبة ، ولكن الذى غلبت عليه المحبة حتى اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو فى مقام المحبة ويعدّ من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب ، فلو غلب الحب واستولت المعرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر ، فإنما الخوف يعدله ويخفف وقعه على القلب ، فقد روى فى بعض الأخبار أن بعض الصدّيقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك ، فهام فى الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقى شاخصا سبعة أيام لاينتفع بشىء ولا ينتفع به شىء فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يارب أنقصه من الذرة بعضها ، فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة ، وذلك أن مائة ألف عبد سألونى شيئاً من المحبة فى الوقت الذى سألنى هذا فأخرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبتك فيما سألت أعطيتهم كما أعطيته ، فقسمت ذرّة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك ، فقال : سبحانك يا أحكم الحاكمين أنقصه مما أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقى معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل فى وصف حال العارف :

قَرِيبُ الْوَجْدِ ذُو مَرْمًى بَعِيدٍ   عَنِ الْأَحْرَارِ مِنْهُمْ وَالْعَبِيدِ
غَرِيبُ الْوَصْفِ ذُو عِلْمٍ غَرِيبٍ   كَأَنَّ فُؤَادَهُ زُبَرُ الْحَدِيدِ
لَقَدْ عَزَّتْ مَعَانِيهِ وَجَلَّتْ   عَنِ الْأَبْصَارِ إِلَّا لِلشَّهِيدِ
يَرَى الْأَعْيَادَ فِى الْأَوْقَاتِ تَجْرِى   لَهُ فِى كُلِّ يَوْمٍ أَلْفُ عِيدِ
وَلِلْأَحْبَابِ أَفْرَاحٌ بِعِيدٍ   وَلَا يَجِدُ السُّرُورَ لَهُ بِعِيدُ

وقد كان الجنيد رحمه الله ينشد أبياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره ، وهى هذه الأبيات :

سَرَتْ بِأُنَاسٍ فِى الْغُيُوبِ قُلُوبُهُمْ   فَحَلُّوا بِقُرْبِ الْمَاجِدِ الْمُتَفَضِّلِ
عِرَاصاً بِقُرْبِ اللهِ فِى ظِلِّ قُدْسِهِ   تَجُولُ بِهَا أَرْوَاحُهُمْ وَتَنَقَّلُ
مَوَارِدُهُمْ فِيهَا عَلَى الْعِزِّ وَالنُّهَى   وَمَصْدَرُهُمْ عَنْهَا لِمَا هُوَ أَكْمَلُ
تَرُوحُ بِعِزٍّ مُفْرَدٍ مِنْ صِفَاتِهِ   وَفِى حُلَلِ التَّوْحِيدِ تَمْشِى وَتَرْفُلُ
وَمِنْ بَعْدِ هٰذَا مَا تَدِقُّ صِفَاتُهُ   وَمَا كَتْمُهُ أَوْلَى لَدَيْهِ وَأَعْدَلُ
سَأَكْتُمُ مِنْ عِلْمِى بِهِ مَا يَصُونُهُ   وَأَبْذُلُ مِنْهُ مَا أَرَى الْحَقَّ يُبْذَلُ
وَأُعْطِى عِبَادَ اللهِ مِنْهُ حُقُوقَهُمْ   وَأَمْنَعُ مِنْهُ مَا أَرَى الْمَنْعَ يَفْضُلُ
عَلَى أَنَّ لِلرَّحْمٰنِ سِرًّا يَصُونُهُ   إِلَى أَهْلِهِ فِى السِّرِّ وَالصَّوْنُ أَجْمَلُ

وأمثال هذه المعارف التى إليها الإشارة لايجوز أن يشترك الناس فيها ، ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شىء من ذلك لمن لم ينكشف له ؛ بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا ، فالحكمة تقتضى شمول الغفلة لعمارة الدنيا ، بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لخربت الدنيا لزهدهم فيها ، وبطلت الأسواق والمعايش ، بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ، ولكن الله تعالى فيما هو شر فى الظاهر أسرار وحكم ، كما أن له فى الخير أسرارا وحكما ، ولا منتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى ، والتوقى من إظهار الوجد والمحبة ، تعظيما للمحبوب وإجلالا له وهيبة منه ، وغيرة على سره ، فإن الحب سر من أسرار الحبيب ، ولأنه قد يدخل فى الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه ، فيكون ذلك من الافتراء وتعظم العقوبة عليه فى العقبى وتتعجل عليه البلوى فى الدنيا ، نعم قد يكون للمحب سكرة فى حبه حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبه ، فإن وقع ذلك عن غير تمحل أو اكتساب فهو معذور لأنه مقهور ، وربما تشتعل من الحب نيرانه فلا يطاق سلطانه ، وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه ، فالقادر على الكتمان يقول :

وَقَالُوا قَرِيبٌ قُلْتُ مَا أَنَا صَانِعٌ ... بِقُرْبِ شُعَاعِ الشَّمْسِ لَوْ كَانَ فِى حِجْرِى
فَمَا لِىَ مِنْهُ غَيْرُ ذِكْرٍ بِخَاطِرٍ ... يُهَيِّجُ نَارَ الْحُبِّ وَالشَّوْقَ فِى صَدْرِى

والعاجز عنه يقول :

يُخْفِى فَيُبْدِى الدَّمْعُ أَسْرَارَهُ ... وَيُظْهِرُ الْوَجْدَ عَلَيْهِ النَّفَسْ

ويقول أيضا :

وَمَنْ قَلْبُهُ مَعَ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُهُ ... وَمَنْ سِرُّهُ فِى جَفْنِهِ كَيْفَ يُكْتَمُ

وقد قال بعض العارفين : أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به ، كأنه أراد

من يكثر التعريض به فى كل شىء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد ، فهو ممقوت عند المحبين والعلماء بالله عز وجل .

ودخل ذو النون المصرى على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى ببلاء ، فقال لا يحبه من وجد ألم ضره ، فقال الرجل لكنى أقول لا يحبه من لم يتنعم بضره ، فقال ذو النون ولكنى أقول لايحبه من شهر نفسه بحبه ، فقال الرجل : أستغفر الله وأتوب إليه .

فإن قلت : المحبة منتهى المقامات ، وإظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر ؟ فاعلم أن المحبة محمودة وظهورها محمود أيضا ، وإنما المذموم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار ، وحق المحب أن ينم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله . وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب ، بل ينبغى أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط ، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك فى الحب وقادح فيه كما ورد فى الإنجيل : إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمينك ، فالذى يرى الخفيات يجزيك علانية ، وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لئلا يعلم بذلك غير ربك ، فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه .

حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه فأخبر بذلك معروفا الكرخى رحمه الله ، فتبسم ثم قال : يا أخى له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين ، فهذا الذى رأيته من مجانينهم . ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن المحب إن كان عارفا وعرف أحوال الملائكة فى حبهم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين فى مملكته وأن حبه أنقص من حب كل محب لله . قال بعض المكاشفين من المحبين : عبدت الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل المجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا ، فذكر أشياء من مكاشفات آيات

السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها : فبلغت صفا من الملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شىء ، فقلت من أنتم ؟ فقالوا نحن المحبون لله عز وجل نعبده ههنا منذ ثلثمائة ألف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواه ولا ذكرنا غيره ، قال : فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم ، فإذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحيا منه حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته ، كما حكى عن الجنيد أنه قال : مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم نعرف لعلته دواء ولا عرفنا لها سببا ، فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ، ثم قال لى أراه بول عاشق ، قال الجنيد فصعقت وغشى علىّ ووقعت القارورة من يدى ، ثم رجعت إلى السرى فأخبرته ، فتبسم ثم قال : قاتله الله ما أبصره ! قلت يا أستاذ وتبين المحبة فى البول ؟ قال نعم ، وقد قال السرى مرة لو شئت أقول ما أيبس جلدى على عظمى ولا سلّ جسمى إلا حبه ثم غشى عليه ، وتدل الغشية على أنه أفصح فى غلبة الوجد ومقدمات الغشية ، فهذه مجامع علامات الحب وثمراته .

ومنها الأنس والرضا كما سيأتى . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب ، وما لا يثمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه ، وقد يحبه لجلاله وجماله . وإن لم يحسن إليه ، والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ، ولذلك قال الجنيد : الناس فى محبة الله تعالى عام وخاص ، فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم فى دوام إحسانه وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تقل محبتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان ؛ فأما الخاصة فنالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ، ولما عرفوا صفاته الكاملة وأسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبوه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ، ولو أزال عنهم جميع النعم ، نعم من الناس من يحب هواه ، وعدو الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور والجهل فيظن أنه محب لله عز وجل ، وهو الذى فقدت فيه هذه العلامات ، أو يلبس بها نفاقا ورياء وسمعة

وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك كعلماء السوء وقراء السوء ، أولئك بغضاء الله فى أرضه . وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يا دوست أى يا حبيب ، فقيل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا ؟ فقال فى أذن القائل سرا : لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا ، فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل ، وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس ، وقد قال أبو تراب النخشبى فى علامات المحبة أبياتا :

لَا تُخْدَعَنَّ فَلِلْحَبِيبِ دَلَائِلُ   وَلَدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ وَسَائِلُ
* مِنْهَا تَنَعُّمُهُ بِمُرِّ بَلَائِهِ   وَسُرُورُهُ فِى كُلِّ مَا هُوَ فَاعِلُ
فَالْمَنْعُ مِنْهُ عَطِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ   وَالْفَقْرُ إِكْرَامٌ وَبِرٌّ عَاجِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَى مِنْ عَزْمِهِ   طَوْعَ الْحَبِيبِ وَإِنْ أَلَحَّ الْعَاذِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَبَسِّمًا   وَالْقَلْبُ فِيهِ مِنَ الْحَبِيبِ بَلَابِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَفَهِّمًا   لِكَلَامِ مَنْ يَحْظَى لَدَيْهِ السَّائِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَقَشِّفًا   مُتَحَفِّظًا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ قَائِلُ

وقال يحيى بن معاذ :

وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُشَمِّرًا   فِى خِرْقَتَيْنِ عَلَى شُطُوطِ السَّاحِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ حُزْنُهُ وَنَحِيبُهُ   جَوْفَ الظَّلَامِ فَمَا لَهُ مِنْ عَاذِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَافِرًا   نَحْوَ الْجِهَادِ وَكُلِّ فِعْلٍ فَاضِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ زُهْدُهُ فِيمَا يَرَى   مِنْ دَارِ ذُلٍّ وَالنَّعِيمِ الزَّائِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ بَاكِيًا   أَنْ قَدْ رَآهُ عَلَى قَبِيحِ فَعَائِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَلِّمًا   كُلَّ الْأُمُورِ إِلَى الْمَلِيكِ الْعَادِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ رَاضِيًا   بِمَلِيكِهِ فِى كُلِّ حُكْمٍ نَازِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ ضِحْكُهُ بَيْنَ الْوَرَى   وَالْقَلْبُ مَحْزُونٌ كَقَلْبِ الثَّاكِلِ

بيان معنى الأنس بالله تعالى

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على المحب بحسب نظره وما يغلب عليه فى وقته ، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه ، وتسمى هذه الحالة فى الانزعاج شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب ، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا ، وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا ، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات ، والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها ؛ فالأنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال ، حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ، ومن هنا نظر بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق . فقال لا إنما الشوق إلى غائب ، فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق ؟ وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقى فى الإمكان من مزايا الألطاف، ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا فى الانفراد والخلوة . كما حكى أن إبراهيم بن أدهم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت ؟ فقال من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله بل كل ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب ، كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذه الغشيان ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء فى دعائه : يا من آنسنى بذكره وأوحشنى من خلقه .

وقال الله عز وجل لداود عليه السلام : كن لى مشتاقا ، وبى مستأنسا ، ومن سواى مستوحشا .

وقيل لرابعة : بم نلت هذه المنزلة ؟ قالت بتركى ما لا يعنينى ، وأنسى بمن لم يزل .

وقال عبد الواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له يا راهب : لقد أعجبتك الوحدة ؟ فقال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليها من نفسك . الوحدة رأس العبادة، فقلت : يا راهب ما أقل ما تجده فى الوحدة ؟ قال الراحة من مداراة الناس ، والسلامة من شرهم . قلت يا راهب : متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى ؟ قال إذا صفا الود ، وخلصت المعاملة ، قلت : ومتى يصفو الود ، قال إذا اجتمع الهم فصار همًّا واحدا فى الطاعة .

وقال بعض الحكماء : عجبا للخلائق كيف أرادوا بك بدلا ! عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك !.

فإن قلت : فما علامة الأنس ، فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشرة الخلق والتبرم بهم ، واستهتاره بعذوبة الذكر ، فإن خالط فهو كمنفرد فى جماعة ، ومجتمع فى خلوة ، وغريب فى حضر ، وحاضر فى سفر ، وشاهد فى غيبة ، وغائب فى حضور ، مخالط بالبدن ، منفرد بالقلب ، مستغرق بعذوبة الذكر ، كما قال علىّ كرم الله وجهه فى وصفهم : هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعر المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون . صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ، أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه ، فهذا معنى الأنس بالله ، وهذه علامته ، وهذه شواهده .

وقد ذهب بعض المتكلمين إلى إنكار الأنس والشوق والحب ، لظنه أن ذلك يدل على التشبيه ، وجهله بأن جمال المدركات بالبصائر أكمل من جمال المبصرات ، ولذة معرفتها أغلب على ذوي القلوب . ومنهم أحمد بن غالب يعرف بغلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبى الحسن النورى والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام

الرضا . وقال : ليس إلا الصبر ، فأما الرضا فغير متصور ، وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر ، فإن المحسوسات وكل مايدخل فى الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة ، وهو معذور ولكن عذره غير مقبول ، وقد قيل :

الأُنسُ باللهِ لاَ يَحْوِيهِ بَطَّالُ ... وَليسَ يُدْرِكُهُ بالحَوْلِ مُحْتَالُ

وَالآنِسُونَ رِجَالٌ كُلُّهُمْ نُجُبٌ ... وَكُلُّهُمْ صَفْوَةٌ لِلّهِ عُمَّالُ

بيان معنى الانبساط والإدلال

الذى تثمره غلبة الأنس

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينغصه خوف التغير والحجاب ، فإنه يثمر نوعا من الانبساط فى الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن أقيم فى مقام الأنس ، ومن لم يقم فى ذلك المقام ويتشبه بهم فى الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ، ومثاله مناجاة برخ الأسود الذى أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبنى إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى عليه السلام ليستسقى لهم فى سبعين ألفا ، فأوحى الله عز وجل إليه : كيف أستجيب لهم وقد أظلمت عليهم ذنوبهم ؟ سرائرهم خبيثة يدعوننى على غير يقين ، ويأمنون مكرى ، ارجع إلى عبد من عبادى يقال له برخ فقل له يخرج حتى أستجيب له ، فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشى فى طريق إذا بعبد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود فى شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى عليه السلام بنور الله عز وجل ، فسلم

عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال اسمى برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين ، اخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال فى كلامه : ماهذا من فعالك ولا هذا من حلمك ، وما الذى بدا لك ؟ أنقصت عليك عيونك ؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك ؟ أم نفد ما عندك ؟ أم اشتد غضبك على المذنبين ؟ ألست كنت غفارا قبل خلق الخطائين ؟ وخلقت الرحمة وأمرت بالعطف ، أم ترينا أنك ممتنع ؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة ؟ قال : فما برح حتى أخضلت بنو إسرائيل بالقطر ، وأنبت الله تعالى العشب فى نصف يوم حتى بلغ الركب ، قال فرجع برخ ، فاستقبله موسى عليه السلام فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربى كيف أنصفنى ؟ فهم موسى عليه السلام به ، فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكنى كل يوم ثلاث مرات .

وعن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقى فى وسطها خص لم يحترق . وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر بذلك ، فبعث إلى صاحب الخص ، قال فأتى بشيخ فقال : ياشيخ ما بال خصك لم يحترق ؟ قال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لا يحرقه ، فقال أبو موسى رضى الله عنه : إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يكُونُ فى أُمَّتِى قَوْمٌ شَعِثَةٌ رُءُوسُهُمْ ، دَنِسَةٌ ثِيَابُهُمْ لوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُمْ[1] » .

قال : ووقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار ، فقال له أمير البصرة انظر لاتحترق بالنار ، فقال إنى أقسمت على ربى عز وجل أن لايحرقنى بالنار ، قال فاعزم على النار أن تطفأ ، قال فعزم عليها فطفئت .

وكان أبوحفص يمشى ذات يوم فاستقبله رستاقى مدهوش ، فقال له أبوحفص ماأصابك ؟ فقال ضل حمارى ولا أملك غيره ، قال فوقف أبوحفص وقال وعزتك لا أخطو خطوة مالم ترد عليه حماره ، قال فظهر حماره فى الوقت ومر أبوحفص رحمه الله ؛ فهذا وأمثاله يجرى لذوى الأنس ، وليس لغيرهم أن يتشبه بهم .

(1) ابن أبى الدنيا فى كتاب الأولياء ، وفيه انقطاع وجهالة .

وقال الجنيد رحمه الله : أهل الأنس يقولون فى كلامهم ومناجاتهم فى خلواتهم أشياء هى كفر عند العامة . وقال مرة : لو سمعها العموم لكفروهم وهم يجدون المزيد فى أحوالهم بذلك ، وذلك يحتمل منهم ويليق بهم ، وإليه أشار القائل :

قَوْمٌ تَخَالَجَهُمْ زَهْوٌ بِسَيِّدِهِمْ ... وَالعَبْدُ يَزْهُو عَلَى مِقْدَارِ مَوْلَاهُ
تَاهُوا بِرُؤْيَتِهِ عَمَّا سِوَاهُ لَهُ ... يَاحُسْنَ رُؤْيَتِهِمْ فِى عِزٍّ مَا تَاهُوا

ولا يستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره متى اختلف مقامهما . ففى القرآن تنبيهات على هذه المعانى لو فطنت وفهمت ، فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها بعين الاعتبار ، فإنما هى عند ذوى الاعتبار من الأسماء .

فأول القصص قصة آدم عليه السلام وإبليس ، أما تراهما كيف اشتركا فى اسم المعصية والمخالفة ثم تباينا فى الاجتباء والعصمة . أما إبليس فأبلس عن رحمته . وقيل إنه من المبعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى[1]) .

وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض عن عبد والإقبال على عبد وهما فى العبودية سيان ولكن فى الحال مختلفان ، فقال : (وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى[2]) وقال فى الآخر : (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى[3]) وكذلك أمره بالقعود مع طائفة ، فقال عز وجل : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ[4]) وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ) حتى قال (فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى

(١) سورة طه عليه السلام ، آية ١٢١ ، ١٢٢
(٢) سورة عبس ، آية ٨-١٠
(٣) سورة عبس أيضا ، آية ٥ ، ٦
(٤) سورة الأنعام ، آية ٥٤

مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ[1]) وقال تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ[2]) .

فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام (إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ[3]) وقوله فى التعليل والاعتذار لما قيل له : (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ[4]) فقال : (وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ[5]) وقوله: (إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى[6]) وقوله: (إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى[7]) وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب ، لأن الذى أقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل ، ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض والهيبة فعوقب بالسجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة : (لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ[8]) .

قال الحسن : العراء هو القيامة ، ونهى نبينا صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ[9]) وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات ، وبعضها لما سبق فى الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ[10]) وقد قال : (مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ[11]) فكان عيسى عليه السلام

(١) سورة الأنعام ، آية ٦٨
(٢) سورة الكهف ، آية ٢٨
(٣) سورة الأعراف ، آية ١٥٥
(٤) سورة طه عليه السلام ، آية ٢٤
(٥) سورة الشعراء ، آية ١٤
(٦) سورة الشعراء أيضا ، آية ١٢ ، ١٣
(٧) سورة طه عليه السلام ، آية ٤٥
(٨) سورة القلم ، آية ٤٩
(٩) سورة القلم أيضا ، آية ٤٨
(١٠) سورة الإسراء ، آية ٥٥
(١١) سورة البقرة آية ، ٢٥٣

من المفضلين ، ولإدلاله سلم على نفسه ، فقال : (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(١)) وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس .

وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى عليه خالقه ، فقال : (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ(٢)) وانظر كيف احتمل لإخوة يوسف ما فعلوه بيوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عددت من أول قوله تعالى : (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا(٣)) إلى رأس العشرين من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض ، وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع ، فغفر لهم وعفا عنهم ، ولم يحتمل العزيز فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر ، حتى قيل محي من ديوان النبوة ، وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك .

وكان آصف من المسرفين وكانت معصيته فى الجوارح فعفا عنه ، فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام : يارأس العابدين ويا ابن محجة الزاهدين ، إلى كم يعصينى ابن خالتك آصف وأنا أحلم عليه مرة بعد مرة ؟ فوعزتى وجلالى لئن أخذته عصفة من عصفاتى عليه لأتركنه مثلة لمن معه ونكالا لمن بعده . فلما دخل آصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه ، فخرج حتى علا كثيبا من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال: إلهى وسيدى أنت أنت وأنا أنا ، فكيف أتوب إن لم تتب علىّ ؟ وكيف أستعصم ؟ إن لم تعصمنى لأعودن ، فأوحى الله تعالى إليه : صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا ، استقبل التوبة وقد تبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلّ به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفى الخبر : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى عَبْدٍ

(١) سورة مريم عليها السلام، آية ٣٣ (٢) سورة مريم أيضا عليها السلام ١٥
(٣) سورة يوسف عليه السلام ، آية ٨

تَدَارَكَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ أَشْفَى عَلَى الْهَلَكَةِ : كَمْ مِنْ ذَنْبٍ وَاجَهْتَنِي بِهِ غَفَرْتُهُ لَكَ قَدْ أَهْلَكْتُ فِى دُونِهِ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ » .

فهذه سنة الله تعالى فى عباده بالتفضيل والتقديم والتأخير على ماسبقت به المشيئة الأزلية، وهذه القصص وردت فى القرآن لتعرف بها سنة الله تعالى فى عباده الذين خلوا من قبل . فما فى القرآن شىء إلا وهو هدى ونور ، وتعرّف من الله تعالى إلى خلقه ، فتارة يتعرف إليهم بالتقديس فيقول : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) . وتارة يتعرف إليهم بصفات جلاله فيقول : (الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ(١)) وتارة يتعرف إليهم فى أفعاله المخوفة والمرجوة فيتلو عليهم سنته فى أعدائه وفى أنبيائه فيقول : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(٢)) . (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ(٣)) ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة ، وهى : الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتقديسه ، أو معرفة صفاته وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده . ولما اشتملت سورة الإخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن فقال : « مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ(٤) » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا فى ثلاثة أمور : لا يكون حاصلا منه من هو نظيره وشبهه ، ودل عليه قوله (لَمْ يَلِدْ) ولا يكون حاصلا ممن هو نظيره وشبهه ، ودل عليه قوله (وَلَمْ يُولَدْ) ولا يكون فى درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ، ودل عليه قوله : (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويجمع جميع ذلك قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) وجملته تفصيل قول لا إله إلا الله، فهذه أسرار

(١) سورة الحشر ، آية ٢٣ (٢) سورة الفجر ، آية ٦، ٧
(٣) سورة الفيل، آية ١ (٤) أحمد من حديث أبى بن كعب باسناد صحيح. ورواه البخارى من حديث أبى سعيد ، ومسلم من حديث أبى الدرداء نحوه .

القرآن ، ولا تتناهى أمثال هذه الأسرار فى القرآن : (وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلاَّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ(١)) ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه : نوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ، ففيه علمُ الأولين والآخرين وهو كما قال ، ولا يعرفه إلا من طال فى آحاد كلماته فكره وصفا له فهمه ، حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر مليك قادر ، وأنه خارج عن حد استطاعة البشر . وأكثر أسرار القرآن معبأة فى طى القصص والأخبار ، فكن حريصاً على استنباطها لينكشف لك فيه من العجائب ما تستحقر معه العلوم المزخرفة الخارجة عنه ، فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانبساط الذى هو ثمرته و بيان تفاوت عباد الله فيه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

القول فى معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته

وما ورد فى فضيلته

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة ، وهو من أعلى مقامات المقربين ، وحقيقته غامضة على الأكثرين ، وما يدخل عليه من التشابه والإيهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وفقهه فى الدين ، فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ، ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شىء لأنه فعل الله ، فينبغى أن يرضى بالكفر والمعاصى ، وانخدع بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسوق وترك الاعتراض والإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ(٢) » .

---

(١) سورة الأنعام ، آية ٥٩ (٢) حديث دعائه لابن عباس «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» متفق عليه دون قوله «وعلمه التأويل» ورواه أحمد بهذه الزيادة .

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ، ثم بحكايات أحوال الراضين ، ثم نذكر حقيقة الرضا ، وكيفية تصوره فيما يخالف الهوى ، ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه : كترك الدعاء والسكوت على المعاصى .

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ(١)) وقد قال تعالى : (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ(٢)) ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده ، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى : (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ(٣)) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ(٤)) فكما أن مشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان . وفى الحديث : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَتَجَلَّى لِلْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُ سَلُونِي فَيَقُولُونَ رِضَاكَ(٥) » فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل .

وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته . وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه فى حب الله للعبد ، ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته ، إذ تقصر أفهام الخلق عن دركه ، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه .

---

(١) سورة البينة ، آية ٩ (٢) سورة الرحمن ، آية ٦٠
(٣) سورة التوبة ، آية ٧٢ (٤) سورة العنكبوت ، آية ٤٥
(٥) البزار والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس فى حديث طويل بسند فيه لين ، وفيه « فيتجلى لهم يقول : أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وهذا محل إكرامى فسلونى فيسألونه الرضا » الحديث ، ورواه أبو يعلى بلفظ « ثم يقول ماذا تريدون؟ فيقولون رضاك» الحديث ، ورجاله رجال الصحيح .

وعلى الجملة فلا رتبة فوق النظر إليه، فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أمروا بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب، وقال الله تعالى: (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (١)) قال بعض المفسرين فيه: يأتي أهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين: إحداها هدية من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها، فذلك قوله تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ (٢)) والثانية السلام عليهم من ربهم، فيزيد ذلك من الهدية فضلا، وهو قوله تعالى: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٣)) والثالثة يقول الله تعالى إني عنكم راض. فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك قوله تعالى: (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) أي من النعيم الذي هم فيه، فهذا فضل رضا الله تعالى، وهو ثمرة رضا العبد.

وأما من الأخبار، فقد روى «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم سَأَلَ طَائِفَةً مِنْ أَصْحَابِهِ مَا أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا مُؤْمِنُونَ، فَقَالَ: مَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ؟ فَقَالُوا: نَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ، وَنَشْكُرُ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَنَرْضَى بِمَوَاقِعِ الْقَضَاءِ، فَقَالَ: مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ». وفي خبر آخر أنه قال: «حُكَمَاءُ عُلَمَاءُ كَادُوا مِنْ فِقْهِهِمْ أَنْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ». وفي الخبر: «طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ لِلْإِسْلَامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا وَرَضِيَ بِهِ (٤)». وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ رَضِيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى مِنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ (٥)». وقال أيضاً: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ تَعَالَى عَبْدًا ابْتَلَاهُ، فَإِنْ صَبَرَ

---

(١) سورة ق، آية ٣٥ (٢) سورة السجدة، آية ١٧

(٣) سورة يس، آية ٥٨

(٤) الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ «وقنع» وقال صحيح.

(٥) حديث «من رضي من الله بالقليل من الرزق رضي منه بالقليل من العمل» رويناه في أمالي المحاملي بإسناد ضعيف من حديث علي بن أبي طالب، ومن طريق المحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس.

اجْتَبَاهُ، فَإِنْ رَضِيَ اصْطَفَاهُ». وقال أيضاً: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَنْبَتَ اللهُ تَعَالَى لِطَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي أَجْنِحَةً فَيَطِيرُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ إِلَى الْجِنَانِ يَسْرَحُونَ فِيهَا وَيَتَنَعَّمُونَ فِيهَا كَيْفَ شَاءُوا، فَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: هَلْ رَأَيْتُمُ الْحِسَابَ؟ فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا حِسَابًا فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ جُزْتُمُ الصِّرَاطَ؟ فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا صِرَاطًا، فَتَقُولُ لَهُمْ: هَلْ رَأَيْتُمْ جَهَنَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: مِنْ أُمَّةِ مَنْ أَنْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَقُولُ: نَاشَدْنَاكُمُ اللهَ حَدِّثُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ فِي الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُونَ: خَصْلَتَانِ كَانَتَا فِينَا فَبَلَغْنَا هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ بِفَضْلِ رَحْمَةِ اللهِ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُمَا؟ فَيَقُولُونَ: كُنَّا إِذَا خَلَوْنَا نَسْتَحِي أَنْ نَعْصِيَهُ وَنَرْضَى بِالْيَسِيرِ مِمَّا قُسِمَ لَنَا، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَحِقُّ لَكُمْ هَذَا (١)». وقال صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ الْفُقَرَاءِ أَعْطُوا اللهَ الرِّضَا مِنْ قُلُوبِكُمْ تَظْفَرُوا بِثَوَابِ فَقْرِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا».

وفي أخبار موسى عليه السلام: إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فعلناه يرضى به عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا، فقال: ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم، ويشهد لهذا ماروى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْلَمَ مَالَهُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَنْظُرْ مَا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ الْعَبْدَ مِنْهُ حَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ (٢)».

وفي أخبار داود عليه السلام: ما لأوليائي والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة

---

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك، والحديث منكر مخالف للقرآن وللأحاديث الصحيحة في الورود وغيره.

(٢) الحاكم من حديث جابر وصححه بلفظ «منزلته ومنزلة الله».

مناجاتى من قلوبهم . يا داود إن محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لايغتمون .

وروى أن موسى عليه السلام قال : يارب دلنى على أمر فيه رضاك حتى أعمله ، فأوحى الله تعالى إليه : إن رضاى فى كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره . قال يارب دلنى عليه ، قال فإن رضاى فى رضاك بقضائى . وفى مناجاة موسى عليه السلام : أى رب أىّ خلقك أحب إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمنى ، قال فأىّ خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال من يستخيرنى فى الأمر فإذا قضيت له سخط قضائى .

وقد روى ماهو أشدّ من ذلك وهو أن الله تعالى قال : « أَنَا اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلَائِى، وَلَمْ يَشْكُرْ نَعْمَائِى، وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَائِى، فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَاىَ[(١)] » ومثله فى الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : « قَالَ اللهُ تَعَالَى قَدَّرْتُ الْمَقَادِيرَ ، وَدَبَّرْتُ التَّدْبِيرَ ، وَأَحْكَمْتُ الصُّنْعَ ، فَمَنْ رَضِىَ فَلَهُ الرِّضَا مِنِّى حَتَّى يَلْقَانِى ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ مِنِّى حَتَّى يَلْقَانِى[(٢)] » . وفى الخبر المشهور « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : خَلَقْتُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَطُوبَى لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وَأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وَأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَيْلٌ ثُمَّ وَيْلٌ لِمَنْ قَالَ لِمَ وَكَيْفَ[(٣)]؟» وفى الأخبار السالفة : أن نبيا من الأنبياء شكا إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ماأراد ، ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكو ؟ هكذا كان بدؤك عندى فى أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض وهذا سبق لك منى وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا ، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟

---

(١) الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصرا على قوله « من لم يرض بقضائى ، ويصبر على بلائى فليلتمس ربا سواى » وإسناده ضعيف .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ ، وللطبرانى فى الأوسط من حديث أبى أمامة «خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين » الحديث ، وإسنادة ضعيف .

(٣) ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى أمامة باسناد ضعيف .

أم تريد أن أبدل ماقدرته عليك فيكون ماتحب فوق ما أحب ويكون ماتريد فوق ما أريد وعزتى وجلالى لئن تلجلج هذا فى صدرك مرة أخرى لأمحونك من ديوان النبوة .

وروى أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لاينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده : يا أبت أما ترى مايصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ، فقال : يابنى إنى رأيت مالم تروا ، وعلمت مالم تعلموا ، إنى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعيم إلى دار الشقاء ، فأخاف أن أتحرك أخرى فيصيبنى مالا أعلم .

وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : « خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِى لِشَىْءٍ فعلتُهُ لِمَ فَعَلْتَهُ ؟ وَلَا لِشَىْءٍ لِمَ أَفْعَلْهُ لِمَ لَا فعلتَهُ ؟ وَلَا قَالَ فى شَىْءٍ كَانَ لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ ، وَلا فى شَىْءٍ لَمْ يَكُنْ لَيْتَهُ كَانَ ، وَكَانَ إِذَا خَاصَمَنِى مُخَاصِمٌ مِنْ أَهْلِهِ يَقُولُ : دَعُوهُ لَوْ قُضِىَ شَىْءٌ لَكَانَ[(١)] » . ويروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد ، وإنما يكون ما أريد ؟ فإن سلمت لما أريد كفيتك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد .

وأما الآثار فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون تعالى الله على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز : مابقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز بن أبى رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والخل

---

(١) متفق عليه .

ولا فى لبس الصوف والشعر ، ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله ابن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلىّ من أن أقول لشىء كان ليته لم يكن أو لشىء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد ابن واسع ، فقال: إنى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عينى .

وروى فى الإسرائيليات أن عابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة ، فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها، فكان يبيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما وتظل مفطرة ، فقال أما لك عمل غير ما رأيت ؟ فقال ماهو والله إلا مارأيت لا أعرف غيره، فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت : خصيلة واحدة هى فىّ ، إن كنت فى شدة لم أتمنّ أن أكون فى رخاء ، وإن كنت فى مرض لم أتمن أن أكون فى صحة ، وإن كنت فى الشمس لم أتمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خصيلة ؟ هذه والله خصلة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه : ما أبالى على أىّ حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء . وقال الثورى يوما عند رابعة : اللهم ارض عنى ، فقالت : أما تستحى من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض ؟ فقال أستغفر الله ، فقال جعفر بن سليمان الضبعى : فمتى يكون العبد راضيا عن الله تعالى ؟ قالت: إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضى عن الله تعالى. وقال أحمد بن أبى الحوارى : قال أبو سليمان الدارانى : إن الله عز وجل من كرمه قد رضى من عبيده بما رضى العبيد من مواليهم قلت وكيف ذاك ؟ قال : أليس مراد العبد من الخلق أن يرضى عنه مولاه ؟ قلت نعم ، قال: فإن محبة الله من عبيده أن يرضوا عنه . وقال سهل : حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا ، وحظهم من الرضا

على قدر عيشهم مع الله عز وجل ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ اللهَ عَزّ وَجَلّ بِحِكْمَتِهِ وَجَلَالِهِ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالْفَرَحَ فى الرِّضَا وَالْيَقِينِ ، وَجَعَلَ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ فى السَّخَطِ[1] » .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور ، فإنما أتى من ناحية إنكار المحبة . فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغراق الهمّ به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها : ومثاله الرجل المحارب فإنه فى حال غضبه أو فى حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذى يغدو فى شغل قريب قد تصيبه شوكة فى قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه ، بل الذى يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به، وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه ، هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب ، والعشق من أعظم الشواغل . وإذا تصور هذا فى ألم يسير بسبب حب خفيف تصور فى الألم العظيم بالحب العظيم ، فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه فى القوة كما يتصور تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر ، فكذا يقوى حب الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة ، وجمال حضرة

---

(1) الطبرانى من حديث ابن مسعود إلا أنه قال « بقسطه » .

الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال ، فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه فلا يحس بما يجرى عليه .

فقد روى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت ، فقيل لها أما تجدين الوجع ؟ فقالت إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه ، فقيل له فى ذلك ، فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع .

وأما الوجه الثانى ، فهو أن يحس به ويدرك ألمه ، ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعنى بعقله وإن كان كارها بطبعه ، كالذى يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة ، فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد له من الفصاد به منة بفعله ، فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم ، وكذلك كل من يسافر فى طلب الربح يدرك مشقة السفر ، ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجعله راضيا بها ، ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذى ادخر له فوق مافاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه ، هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذى يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب فى مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك موجود فى المشاهدات فى حب الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون فى نظمهم ونثرهم ، ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر . فإن نظر إلى الجمال فما هو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقذار والأخباث ، بدايته من نطفة مذرة ، ونهايته جيفة قذرة ، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة . وإن نظر إلى المدرك للجمال فهى العين الخسيسة التى تغلط فيما ترى كثيرا ، فترى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعيد قريبا والقبيح جميلا ، فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك فى حب الجمال الأزلى الأبدى الذى لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التى لا يعتريها الغلط ولا يدور بها الموت ؟ بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت

مزيد تنبيه واستكشاف ، فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، ويشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم ؛ فقد قال شقيق البلخى : من يرى ثواب الشدة لا يشتهى المخرج منها .

وقال الجنيد : سألت سريا السقطى هل يجد المحب ألم البلاء ؟ قال لا ، قلت وإن ضرب بالسيف ، قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة .

وقال بعضهم : أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار .

وقال بشر بن الحارث : مررت برجل وقد ضرب ألف سوط فى شرقية بغداد ولم يتكلم ثم حمل إلى الحبس فتبعته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأنى عاشق ، فقلت له ولم سكت ؟ قال لأن معشوقى كان بحذائى ينظر إلى ، فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر ؟ قال فزعق زعقة خر ميتا .

وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم فى قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم ، فما ظنك بقلوب وقعت بين جماله وجلاله ، إذا لاحظت جلاله هابت ، وإذا لاحظت جماله تاهت .

وقال بشر : قصدت عبادان فى بدايتى فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والنمل يأكل لحمه فرفعت رأسه فوضعته فى حجرى وأنا أردد الكلام ، فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى ؟ لو قطعنى إربا إربا ماازددت له إلا حبا . قال بشر: فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد وبين ربه فأنكرتها .

قال أبو عمرو محمد بن الأشعث : إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام ، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع ، بل فى القرآن ماهو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسسن بذلك .

وقال سعيد بن يحيى : رأيت بالبصرة فى خان عطاء بن مسلم شابا و فى يده مدية وهو ينادى بأعلى صوته و الناس حوله وهو يقول :

يَوْمُ فِرَاقِ مِنَ القِيَامَةِ أَطْوَلُ ... وَالمَوْتُ مِنْ أَلَمِ التَّفَرُّقِ أَجْمَلُ

قَالُوا الرَّحِيلُ فَقُلْتُ لَسْتُ بِرَاحِلِ ... لَكِنَّ مُهْجَتِيَ الَّتِي تَتَرَحَّلُ

ثم بقر بالمدية بطنه وخر ميتا ، فسألت عنه وعن أمره ، فقيل لى إنه كان يهوى فتى لبعض الملوك حجب عنه يوما واحدا . ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل : دلنى على أعبد أهل الأرض ، فدله على رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما ماشئت أنت وسلبتنى ماشئت أنت وأبقيت لى فيك الأمل يا بر ياوصول .

ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث ، فمات الغلام فخرج ابن عمر فى جنازته وما رجلا أشد سرورا أبدا منه ، فقيل له فى ذلك ، فقال ابن عمر: إنما كان حزنى رحمة له ، فلما وقع أمر الله رضينا به .

وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك ، فالديك يوقظهم للصلاة ، والحمار ينقلون عليه الماء ويحمل لهم خباءهم ، والكلب يحرسهم . قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فحزنوا له ، وكان الرجل صالحا فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيرا ، ثم أصيب الكلب بعد ذلك ، فقال عسى أن يكون خيرا ، ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبى من حولهم و بقوا هم ، قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب والحمير و الديكة فكانت الخيرة لهؤلاء فى هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى ، فإذن من عرف خفىّ لطف الله تعالى رضى بفعله على كل حال .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد مضروب الجنبين بفالج ،

وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه ، فقال له عيسى : ياهذا أىّ شىء من البلاء أراه مصروفا عنك ؟ فقال : ياروح الله أنا خير ممن لم يجعل الله فى قلبه ماجعل فى قلبى من معرفته ، فقال له صدقت هات يدك ، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجها وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به ، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد معه .

وقطع عروة بن الزبير رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذى أخذ منى واحدة ، وايمك لئن كنتَ أخذت لقد أبقيت ، ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ، ثم لم يدَعْ ورده تلك الليلة .

وكان ابن مسعود يقول : الفقر والغنى مطيتان ما أبالى أيتهما ركبت ، إن كان الفقر فإن فيه الصبر ، وإن كان الغنى فإن فيه البذل .

وقال أبو سليمان الدارانى : قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فما لى منه إلا مشامّ الريح ، وعلى ذلك لو أدخل الخلائق كلهم الجنة وأدخلنى النار كنت بذلك راضيا .

وقيل لعارف آخر: هل نلت غاية الرضا عنه ؟ فقال: أما الغاية فلا ، ولكن مقام الرضا قد نلته ، لو جعلنى جسرا على جهنم يعبر الخلائق علىّ إلى الجنة ثم ملأ بى جهنم تحلة لقسمه و بدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه ، وهذا الكلام من علم أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الإحساس بألم النار ؛ فإن بقى إحساس فيغمره مايحصل من لذته فى استشعاره حصول رضا محبوبه بإلقائه إياه فى النار ، واستيلاء هذه الحالة غير محال فى نفسه و إن كان بعيدا من أحوالنا الضعيفة ، ولكن لاينبغى أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء ويظن أن ماهو عاجز عنه يعجز عنه الأولياء .

وقال الروذبارى : قلت لأبى عبد الله بن الجلاء الدمشقى قول فلان وددت أن جسدى قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامعناه ؟ فقال : ياهذا إن كان هذا من طريق

التعظيم والإجلال فلا أعرف ، وإن كان هذا من طريق الإشفاق والنصح للخلق فأعرف ، ثم غشى عليه .

وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم ولا يقعد قد نقب له فى سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته ، فدخل عليه مطرّف وأخوه العلاء فجعل يبكى لما يراه من حاله ، فقال لم تبكى ؟ قال لأنى أراك على هذه الحالة العظيمة ، قال لا تبك فإنّ أحبه إلى الله تعالى أحبه إلىّ ، ثم قال أحدثك شيئا لعل الله أن ينفعك به واكتم علىّ حتى أموت ، إن الملائكة تزورنى فآنس بها ، وتسلم على فأسمع تسليمها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بعقوبة إذ هو سبب هذه النعمة الجسيمة ، فمن يشاهد هذا فى بلائه كيف لا يكون راضيا به ؟ .

قال : ودخلنا على سويد بن متعبة نعوده فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف ، فقالت له امرأته أهلى فداؤك مانطعمك مانسقيك ؟ فقال : طالت الضجعة ودبرت الحراقيف وأصبحت نضوا لا أطعم طعاما ولا أسيغ شرابا منذ كذا فذكر أياما ، وما يسرنى أنى نقصت من هذا قلامة ظفر .

ولما قدم سعد بن أبى وقاص إلى مكة وقد كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعو لهذا ولهذا وكان مجاب الدعوة . قال عبد الله بن السائب : فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فعرفنى وقال أنت قارئ أهل مكة ؟ قلت نعم فذكر قصة قال فى آخرها ، فقلت له ياعم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك بصرك ، فتبسم وقال يابنى قضاء الله سبحانه عندى أحسن من بصرى .

وضاع لبعض الصوفية ولد صغير ثلاثة أيام لم يعرف له خبر، فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك ، فقال: اعتراضى عليه فيما قضى أشد عَلَىّ من ذهاب ولدى .

وعن بعض العباد أنه قال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكى عليه منذ ستين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب ، فقيل له وما هو ؟ قال : قلت مرة لشىء كان ليته لم يكن .

وقال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض لكان أحب إلىّ من أن أقول لشىء قضاه الله سبحانه ليته لم يقضه .

وقيل لعبد الواحد بن زيد : ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة فقصده فقال له ياحبيبى أخبرنى عنك هل قنعت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فإنما مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال : لولا أنى أستحى منك لأخبرتك بأن معاملتك خمسين سنة مدخولة ، ومعناه أنك لم يفتح لك باب القلب فتترقى إلى درجات القرب بأعمال القلب ، وإنما أنت تعد فى طبقات أصحاب اليمين ، لأن مزيدك منه فى أعمال الجوارح التى هى مزيد أهل العموم .

ودخل جماعة من الناس على الشبلى رحمه الله تعالى فى مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال من أنتم ؟ فقالوا محبوك ، فأقبل عليهم يرميهم بالحجارة فتهاربوا ، فقال ما بالكم ادعيتم محبتى ، إن صدقتم فاصبروا على بلائى . وللشبلى رحمه الله تعالى :

إنّ الْحُبَّ لِلرَّحْمٰنِ أَسْكَرَنِى ... وَهَلْ رَأَيْتَ مُحِبًّا غَيْرَ سَكْرَانِ

وقال بعض عباد أهل الشام : كلكم يلقى الله عز وجل مصدّقا ولعله قد كذبه ، وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يشير بها. ولو كان بها شلل ظل يواريها؛ يعنى بذلك أن الذهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به ، والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستنكفون منه .

وقيل إنه وقع الحريق فى السوق ، فقيل للسرى احترق السوق وما احترق دكانك ، فقال الحمد لله ، ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتى دون المسلمين ؟ فتاب من التجارة وترك الحانوت بقية عمره توبة واستغفارا من قوله الحمد لله .

فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ، ومهما كان ذلك ممكنا فى حب الخلق وحظوظهم كان ممكنا فى حق حب الله تعالى وحظوظ الآخرة قطعا .

وإمكانه من وجهين :

أحدهما الرضا بالألم ، لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء وانتظارا للشفاء .

والثانى الرضا به لا لحظ وراءه ، بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ، فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب فى مراد المحبوب فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه، ونفوذ إرادته ولو فى هلاك روحه كما قيل :

* فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ *

وهذا ممكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولى الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ، فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغى أن ينكره من فقده من نفسه ، لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

وقد روي عن عمرو بن الحارث الرافعى قال : كنت فى مجلس بالرقة عند صديق لى وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا فى المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

عَلاَمَةُ ذُلِّ الْهَوَى عَلَى الْعَاشِقِينَ الْبُكَا
وَلَا سِيَّمَا عَاشِقٌ إِذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكَى

فقال لها الفتى : أحسنت والله ياسيدتى، أفتأذنين لى أن أموت ؟ فقالت مت راشدا قال: فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت .

وقال الجنيد : رأيت رجلا متعلقا بكمّ صبى وهو يتضرع إليه ويظهر له المحبة ، فالتفت إليه الصبى وقال له إلى متى ذا النفاق الذى تظهر لى ؟ فقال : قد علم الله أنى

صادق فيما أورده حتى لو قلت لى مت لمت ، فقال إن كنت صادقا فمت ، قال فتنحى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا .

وقال سمنون المحب : كان فى جيراننا رجل وله جارية يحبها غاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيسا ، فبينا هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آه ، قال فدهش الرجل وسقطت الملعقة من يده وجعل يحرك مافى القدر بيده حتى سقطت أصابعه ، فقالت الجارية ماهذا ؟ قال هذا مكان قولك آه .

وحكى عن محمد بن عبد الله البغدادى قال : رأيت بالبصرة شابا على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلْيَمُتْ هٰكَذا لاَ خَيْرَ فى عِشْقٍ بِلاَ مَوْتِ

ثم رمى نفسه إلى الأرض فحملوه ميتا . فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق ، والتصديق به فى حب الخالق أولى ؛ لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال ، بل كل جمال فى العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال ، نعم الذى فقد البصر ينكر جمال الصور ، والذى فقد السمع ينكر لذة الألحان والنغمات الموزونة ؛ فالذى فقد القلب لابد وأن ينكر أيضا هذه اللذات التى لا مظنة لها سوى القلب .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا

وكذلك كراهة المعاصى ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعى فى إزالتها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايناقضه أيضا ، وقد غلط فى ذلك بعض البطالين المغترين ، وزعم أن المعاصى والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل

بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدعاء فقد تعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه فى كتاب الدعوات تدل عليه ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعلى المقامات من الرضا ، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله : (وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا[1]) وأما إنكار المعاصى وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال : (وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا[2]) . وقال تعالى : (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ[3]) وفى الخبر المشهور : « مَنْ شَهِدَ مُنْكَرًا فَرَضِيَ بِهِ فَكَأَنَّهُ قَدْ فَعَلَهُ » . وفى الحديث : « الدَّالُّ عَلَى الشَّرِّ كَفَاعِلِهِ[4] » وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه ، قيل وكيف ذلك ؟ قال يبلغه فيرضى به . وفى الخبر : « لَوْ أَنَّ عَبْدًا قُتِلَ بِالْمَشْرِقِ وَرَضِيَ بِقَتْلِهِ آخَرُ بِالْمَغْرِبِ كَانَ شَرِيكًا فِي قَتْلِهِ[5] » .

وقد أمر الله تعالى بالحسد والمنافسة فى الخيرات وتوقى الشرور فقال تعالى : (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ[6]) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَبُثُّهَا فِي النَّاسِ وَيُعَلِّمُهَا، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ[7] » . وفى لفظ آخر : « وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ

(١) سورة الأنبياء عليهم السلام ، آية ٩٠

(٢) سورة يونس عليه السلام، آية ٧ (٣) سورة التوبة ، آية ٨٧

(٤) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس باسناد ضعيف جدا .

(٥) لم أجد له أصلا بهذا اللفظ ، ولابن عدى من حديث أبى هريرة « من حضر معصية فكرهها فكأنما غاب عنها ، ومن غاب عنها فأحبها فكأنما حضرها » .

(٦) سورة المطففين ، آية ٢٦

(٧) البخارى من حديث أبى هريرة ، ومسلم من حديث ابن مسعود .

وَالنَّهَارِ ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ : لَوْ آتَانِي اللَّهُ مِثْلَ مَا آتَى هَذَا ، لَفَعَلْتُ مِثْلَ مَا يَفْعَلُ » .

وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى ، مثل قوله تعالى : (لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ[1]) وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ[2]) وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا[3]) . وفى الخبر : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُنَافِقٍ ، وَعَلَى كُلِّ مُنَافِقٍ أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مُؤْمِنٍ[4] » . وقال عليه الصلاة والسلام : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . وقال : « مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا وَوَالاَهُمْ حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ[5] » . وقال عليه الصلاة والسلام « أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ[6] » وشواهد هذا قد ذكرناها فى بيان الحب والبغض فى الله تعالى من كتاب آداب الصحبة ، وفى كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فلا نعيده .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى[7] فإن كانت المعاصى

(١) سورة آل عمران ، آية ٢٨ (٢) سورة المائدة ، آية ٥١ .

(٣) سورة الأنعام ، آية ١٢٩ (٤) لم أجد له أصلا

(٥) الطبرانى من حديث أبى قرصافة . وابن عدى من حديث جابر « من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم » زاد ابن عدى « يوم القيامة » وفى طريقه إسماعيل ابن يحيى التيمى ضعيف . (٦) رواه أحمد.

(٧) الترمذى من حديث سعد بن أبى وقاص « من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل » الحديث ، وقال غريب ، وتقدم حديث « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وحديث « إن الله بقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا » وتقدم فى حديث الاستخارة « واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به » وحديث « من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من العمل » وحديث « أسألك الرضا بالقضاء » الحديث وغير ذلك .

بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح فى التوحيد، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على هذا الوجه ؟ وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة فى شىء واحد . فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين على الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاما من مقامات الرضا وسموه حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شىء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد فى شىء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه ، إذ قد يموت عدوك الذى هو أيضا عدو بعض أعدائك وساع فى إهلاكه فتكره موته من حيث إنه مات عدو عدوك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوك ، وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليما للملك إلى مالك الملك ، ورضا بما يفعله فيه ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه ، وعلامة كونه ممقوتا عند الله وبغيضا عنده حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم، ولا ينكشف هذا لك إلا بمثال .

فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدى محبيه إنى أريد أن أميز بين من يحبنى ويبغضنى وأنصب فيه معيارا صادقا وميزانا ناطقا ، وهو أنى أقصد إلى فلان فأوذيه وأضر به ضربا يضطره ذلك إلى الشتم لى حتى إذا شتمنى أبغضته واتخذته عدوا لى ، فكل من أحبه أعلم أيضا أنه عدوى وكل من أبغضه أعلم أنه صديقى ومحبى ، ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذى هو سبب البغض وحصل البغض الذى هو سبب العداوة ، فحق على كل من هو صادق فى محبته وعالم بشروط المحبة أن يقول: أما تدبيرك فى إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا محب له وراض به فإنه رأيك وتدبيرك وفعلك وإرادتك .

وأما شتمه إياك فإنه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه ، فإنك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت، فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتدبيرك الذى دبرته فأنا راض به ، ولو لم يحصل لكان ذلك نقصانا فى تدبيرك وتعويقا فى مرادك وأنا كاره لفوات مرادك . ولكنه من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جمالك ، إذ كان ذلك يقتضى أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك ، ومقتضى تدبيرك .

وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضا مبغض له ، لأن شرط المحب أن يكون لحبيب المحبوب حبيبا ولعدوه عدوا .

وأما بغضه لك فإنى أرضاه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعى البغض، ولكنى أبغضه من حيث إنه وصف ذلك المبغض وكسبه وفعله، وأمقته لذلك فهو ممقوت عندى لمقته إياك وبغضه ، ومقته لك أيضا عندى مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضى ، وإنما التناقض أن يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه .

وأما إذا كان مكروها لا من حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لا تناقض فيه ، ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ، ونظائر ذلك لا تحصى ، فإن تسليط الله دواعى الشهوة والمعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب المعصية ويجره الحب إلى فعل المعصية يضاهى ضرب المحبوب للشخص الذى ضربناه مثلا ليجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ، ومقت الله تعالى لمن عصاه ، وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما يحصل بتدبيره واختياره لأسبابه ، وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبيده ، أعنى تسليط دواعى المعصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بإبعاده ومقته ، فواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادى من أبعده الله عن حضرته وإن اضطره

بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته ، فإنه بعيد مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بإبعاده قهرا ومطرودا بطرده واضطراره ، والمبعد عن درجات القرب ينبغى أن يكون مقيتا بغيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوبُ الغضب عليه بإبعاده ، وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار ، من البغض فى الله ، والحب فى الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة فى مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل ، وهذا كله يستمد من سرّ القدر الذى لارخصة فى إفشائه ، وهو أن الشرّ والخير كلاهما داخلان فى المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضىّ به ، فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل ، وكذا من قال إنهما جميعا منه من غير افتراق فى الرضا والكراهة فهو أيضا مقصر ، وكشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « القَدَرُ سِرُّ اللهِ فَلا تُفْشُوهُ (1) » وذلك يتعلق بعلم المكاشفة .

وغرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصى مع أنها من قضاء الله تعالى ، وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه ، وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصى وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف ، كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى فى العطش ، وشرب الماء طلبا لإزالة العطش مباشرة سبب رتبه مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ، واستقصيناه فى كتاب التوكل ، فهو أيضا

(1) أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر ، وابن عدى فى الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

لايناقض الرضا ، لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به ، نعم إظهار البلاء فى معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لايناقض .

وقد قال بعض السلف : من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى فى معرض الشكاية وذلك فى الصيف ، فأما فى الشتاء فهو شكر ، والشكوى تناقض الرضا بكل حال ، وذم الأطعمة وعيبها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى ، لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى ، وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال همّ وتعب ، والاحتراف كد ومشقة ، كل ذلك قادح فى الرضا ، بل ينبغى أن يسلم التدبير لمدبره والمملكة لمالكها ، ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه : لاأبالى أصبحت غنيا أو فقيراً ، فإنى لا أدرى أيهما خير لى ؟

بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى ومذمتها لا يقدح فى الرضا

اعلم أن الضعيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون يدل على النهى عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصى ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال ، بل العلة فى النهى عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقى فيه المرضى مهملين لا متعهد لهم فيهلكون هزالا وضرا ، ولذلك شبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الأخبار بالفرار من الزحف ، ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة فى الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك فى كتاب التوكل .

وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التى هى مظانّ المعاصى ليس فرارا من القضاء ، بل من القضاء الفرار مما لا بد من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التى تدعو إلى

المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذمومة ؛ فما زال السلف الصالح يعتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بغداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها ، فقال ابن المبارك : قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بلدا شرًّا من بغداد ، قيل وكيف ؟ قال هو بلد تزدرى فيه نعمة الله وتستصغر فيه معصية الله . ولما قدم خراسان قيل له : كيف رأيت بغداد ؟ قال ما رأيت بها إلا شرطيا غضبان ، أو تاجرا لهفان ، أو قارئا حيران . ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة ، لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به ، وإنما قصد بذلك تحذير الناس ، وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببغداد يرقب استعداد القافلة ستة عشر يوما ، فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه .

وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحبار . وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن ؟ فقال العراق ، قال فما تصنع به ؟ بلغني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قيض الله له قرينا من البلاء . وذكر كعب الأحبار يوما العراق فقال : فيه تسعة أعشار الشر ، وفيه الداء العضال ، وقد قيل : قسم الخير عشرة أجزاء ، فتسعة أعشاره بالشام وعشره بالعراق . وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك . وقال بعض أصحاب الحديث : كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه صوفي متدرع بعباءة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن؟ فقال بغداد ، فأعرض عنه وقال: يأتينا أحدهم في زي الرهبان فإذا سألناه أين تسكن ؟ قال في عش الظلمة . وكان بشر بن الحارث يقول : مثال المتعبد ببغداد مثال المتعبد في الحش . وكان يقول : لاتقتدوا بي في المقام بها ، من أراد أن يخرج فليخرج . وكان أحمد بن حنبل يقول : لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثر في نفسي . قيل وأين تختار السكنى ؟ قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بغداد : زاهدهم زاهد ، وشريرهم شرير . فهذا يدل على أن من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر . قال الله تعالى :

(أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا[1]) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة ، فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلا على الدوام : (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا[2]) وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاء ودمر الجميع وشمل المطيعين . قال الله تعالى : (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً[3]) ، فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضافتها إلى فعل الله تعالى ، فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث : رجل يحب الموت شوقا إلى لقاء الله تعالى . ورجل يحب البقاء لخدمة المولى . ورجل قال لاأختار شيئا بل أرضى بما اختاره الله تعالى ، ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم ، لأنه أقلهم فضولا . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال الثوري : كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت . فقال له يوسف لم ؟ قال : لما أتخوف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان لم ؟ قال لعلي أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا ، فقال لوهيب إيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إليّ أحبه إلى الله سبحانه وتعالى . فقبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

(١) سورة النساء ، آية ٩٧ . (٢) سورة النساء ، آية ٧٥
(٣) سورة الأنفال ، آية ٢٥ .

بيان جملة من حكايات المحبين
وأقوالهم ومكاشفاتهم

قيل لبعض العارفين: إنك محب، فقال لست محبا، إنما أنا محبوب والمحب متعوب. وقيل له أيضا: الناس يقولون إنك واحد من السبعة، فقال أنا كل السبعة. وكان يقول: إذا رأيتمونى فقد رأيتم أربعين بدلا، قيل وكيف وأنت شخص واحد؟ قال لأنى رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه.

وحكى عن الخضر عليه السلام أنه قال: ما حدثت نفسى يوما قط أنه لم يبق ولى لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت فى ذلك اليوم وليا لم أعرفه. وقيل لأبى يزيد البسطامى مرة: حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى، فصاح ثم قال: ويلكم لايصلح لكم أن تعلموا ذلك، قيل فحدثنا بأشد مجاهدتك لنفسك فى الله تعالى، فقال وهذا أيضا لايجوز أن أطلعكم عليه، قيل فحدثنا عن رياضة نفسك فى بدايتك، فقال نعم دعوت نفسى إلى الله فجمحت علىّ، فعزمت عليها أن لاأشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لى بذلك.

ويحكى عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد فى بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقبيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينيه لايطرف، قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قعد فقال: اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشى على الماء والمشى فى الهواء فرضوا بذلك، وإنى أعوذ بك من ذلك، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم طى الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك، وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإنى أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء، ثم التفت فرآنى فقال يحيى: قلت نعم ياسيدى فقال مذ متى أنت ههنا؟ قلت منذ حين فسكت، فقلت ياسيدى حدثنى بشىء، فقال أحدثك بما يصلح لك؟ أدخلنى فى الفلك الأسفل فدورنى فى الملكوت السفلى، وأرانى الأرضين وما تحتها إلى الثرى، ثم أدخلنى فى الفلك العلوى فطوّف بى فى السموات وأرانى مافيها من الجنان إلى العرش، ثم أوقفنى بين يديه فقال سلنى أى شىء رأيت حتى أهبه لك؟ فقلت: ياسيدى مارأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه، فقال أنت عبدى حقا تعبدنى لأجلى صدقا لأفعلن بك ولأفعلن فذكر أشياء. قال يحيى فهالنى ذلك وامتلأت به وعجبت منه، فقلت: ياسيدى لم لاسألته المعرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلنى ما شئت؟ قال فصاح بى صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه منى حتى لاأحب أن يعرفه سواه.

وحكى أن أبا تراب النخشبى كان معجبا ببعض المريدين، فكان يدنيه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يوما: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال إنى عنه مشغول، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد، فقال ويحك ما أصنع بأبى يزيد؟ وقد رأيت الله تعالى فأغنانى عن أبى يزيد؟ قال أبو تراب فهاج طبعى ولم أملك نفسى فقلت: ويلك تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة، قال فبهت الفتى من قوله وأنكره، فقال وكيف ذلك؟ قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك؟ ترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره فعرف ما قلت، فقال احملنى إليه فذكر قصة قال فى آخرها: فوقفنا على تل ننتظره ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع، قال فمرّ بنا وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فانظر إليه، فنظر إليه الفتى فصعق فحركناه فإذا هو ميت فتعاونا على دفنه، فقلت لأبى يزيد: ياسيدى نظره إليك قتله، قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكنّ فى قلبه سرّ لم ينكشف له بوصفه، فلما رآنا انكشف له سرّ قلبه فضاق عن حمله لأنه فى مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك.

ولما دخل الزنج البصرة فقتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا: لو سألت الله تعالى دفعهم ، فسكت ثم قال : إن لله عبادا فى هذه البلدة لو دعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم إلا مات فى ليلة واحدة ولكن لا يفعلون ، قيل لم ؟ قال : لأنهم لا يحبون مالا يحب ، ثم ذكر من إجابة الله أشياء لا يستطاع ذكرها حتى قال : ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها ، وهذه أمور ممكنة فى أنفسها ؛ فمن لم يحظ بشىء منها فلا ينبغى أن يخلو عن التصديق والإيمان بإمكانها ، فإن القدرة واسعة والفضل عميم ، وعجائب الملك والملكوت كثيرة ، ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها ، وفضله على عباده الذين اصطفى لا غاية له ، ولذلك كان أبو يزيد يقول : إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة ، فإن سكنت إلى ذلك حجبك به ، وهذا بلاء مثلهم ومن هو فى مثل حالهم لأنهم الأمثل فالأمثل .

وقد قال بعض العارفين : كوشفت بأربعين حوراء رأيتهن يتساعين فى الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشخشن ويتثنى معهن ، فنظرت إليهن نظرة فعوقبت أربعين يوما ، ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن فى الحسن والجمال وقيل لى انظر إليهن ، قال فسجدت وغمضت عينى فى سجودى لئلا أنظر إليهن وقلت أعوذ بك مما سواك لا حاجة لى بهذا ، فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عنى .

فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغى أن ينكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها ، فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه المظلمة وقلبه القاسى لضاق مجال الإيمان عليه ، بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة أدناها الإخلاص ، وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا ، ثم مكاتمة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحصن الخمول ، فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم ، وهى أعز موجود فى الأتقياء من الناس ، وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق يفيض عليه نور اليقين وينكشف له مبادىء الحق ، وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق

يجرى مجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة فى الحديدة إذا شكلت ونقيت وصقلت وصوّرت بصورة المرآة ، فنظر المنكر إلى مافى يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف المرئى فيها عند ظهور جوهرها ، وإنكار ذلك غاية الجهل والضلال ، فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك وقصور من رآه ، وبئس المستند ذلك فى إنكار قدرة الله تعالى ، بل إنما يشم روائح المكاشفة من سلك شيئا ولو من مبادى الطريق ، كما قيل لبشر : بأىّ شىء بلغت هذه المنزلة ؟ قال كنت أكاتم الله تعالى حالى ؛ معناه أسأله أن يكتم علىّ ويخفى أمرى .

وروى أنه رأى الخضر عليه السلام ، فقال له ادع الله تعالى لى ، فقال : يسر الله عليك طاعته . قلت : زدنى ، قال : وسترها عليك ، فقيل معناه سترها عن الخلق ، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها .

وعن بعضهم أنه قال : أقلقنى الشوق إلى الخضر عليه السلام ، فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء علىّ ، قال فرأيته فما غلب علىّ همى ولا همتى إلا أن قلت له يا أبا العباس علمنى شيئا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة ، فقال قل : اللهم أسبل علىّ كثيف سترك ، وحط علىّ سرادقات حجبك ، واجعلنى فى مكنون غيبك ، واحجبنى عن قلوب خلقك . قال ثم غاب فلم أره ولم أشتق إليه بعد ذلك ، فما زلت أقول هذه الكلمات فى كل يوم ، فحكى أنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن ، حتى كان أهل الذمة يسخرون به ويستسخرونه فى الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم ، وكان الصبيان يلعبون به ، فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله فى ذله وخموله ، فهكذا حال أولياء الله تعالى ، ففى أمثال هؤلاء ينبغى أن يطلبوا ، والمغرورون إنما يطلبونهم تحت المرقعات والطيالسة ، وفى المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيرة الله تعالى على أوليائه تأبى إلا إخفاءهم كما قال تعالى :

أوليائى تحت قبابى لايعرفهم غيرى ، وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « رُبَّ أشْعَثَ أغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ ، لَوْ أقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّه(١) » .

وبالجملة : فأبعد القلوب عن مشام هذه المعانى القلوب المتكبرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بعملها وعلمها ، وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستشعرة ذلّ نفسها استشعارا إذا ذل واهتضم لم يحس بالذل ، كما لايحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاه ، فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل ، بل كان عند نفسه أخس منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا فى حقه ، بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع بالطبع صفة ذات ، فمثل هذا القلب يرجى له أن يستنشق مبادى هذه الروائح ؛ فإن فقدنا مثل هذا القلب وحرمنا مثل هذا الروح فلا ينبغى أن يطرح الإيمان بإمكان ذلك لأهله ؛ فمن لايقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤمنا بهم فعسى أن يحشر مع من أحب ، ويشهد لهذا ماروى أن عيسى عليه السلام قال لبنى إسرائيل . أين ينبت الزرع ؟ قالوا فى التراب ، فقال بحق أقول لكم لاتنبت الحكمة إلا فى قلب مثل التراب .

ولقد انتهى المريدون لولاية الله تعالى فى طلب شروطها بإذلال النفس إلى منتهى الضعة والخسة ، حتى روى أن ابن الكريبى وهو أستاذ الجنيد دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يرده ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله فى المرة الرابعة ، فسأله عن ذلك ؟ فقال قد رضت نفسى على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينطرد ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ، ولو رددتنى خمسين مرة ثم دعوتنى بعد ذلك لأجبت . وعنه أيضا أنه قال : نزلت فى محلة فعرفت فيها بالصلاح فتشتت عَلَىَّ قلبى فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتى فوقها وخرجت وجعلت أمشى قليلا قليلا فلحقونى فنزعوا مرقعتى وأخذوا الثياب وصفعونى وأوجعونى ضربا فصرت بعد

(١) مسلم من حديث أبى هريرة .

ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسى ، فهكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس ، فإن الملتفت إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له ، فليس بين القلب و بين الله حجاب بعد وتخلل حائل ، وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها ، وأعظم الحجب شغل النفس . ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لايفارق مجلس أبى يزيد ، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر لاأفطر ، وأقوم الليل لاأنام ولا أجد فى قلبى من هذا العلم الذى تذكر شيئا وأنا أصدّق به وأحبه ، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقمت ليلها ماوجدت من هذا ذرة . قال ولم ؟ قال لأنك محجوب بنفسك ، قال فلهذا دواء ؟ قال نعم ، قال قل لى حتى أعمله ، قال لاتقبله ، قال فاذكره لى حتى أعمل ، قال اذهب الساعة إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك ، وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة مملوءة جوزا ، واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفعنى صفعة أعطيته جوزة ، وادخل السوق وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك وأنت على ذلك ، فقال الرجل : سبحان الله ! تقول لى مثل هذا؟ فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك ، قال وكيف ؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها وما سبحت ربك ، فقال هذا لا أفعله ولكن دلنى على غيره ، فقال ابتدئ بهذا قبل كل شيء ، فقال لا أطيقه ، قال : قد قلت لك إنك لا تقبل ، فهذا الذى ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل بنظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ، ولا ينجى من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله ، فمن لايطيق الدواء فلا ينبغى أن ينكر إمكان الشفاء فى حق من داوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلا ، فأقل درجات الصحة الإيمان بإمكانها ، فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضا ، وهذه أمور جلية فى الشرع واضحة ، وهى مع ذلك مستبعدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع ، فقد قال صلى اللهُ عليه وسلم : « لاَ يَسْتَكْمِلُ الْعَبْدُ الإِيمَانَ حَتَّى تَكُونَ قِلَّةُ الشيْءِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كَثْرَتِهِ ، وَحَتَّى يَكُونَ أَنْ

لا يُعْرَفَ أَحَبَّ مِنْ أَنْ يُعْرَفَ[١] » وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ : لَا يَخَافُ فِى اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، وَلَا يُرَائِى بِشَىْءٍ مِنْ عَمَلِهِ ، وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ ، آثَرَ أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا[٢] » وقال عليه الصلاة والسلام : « لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ : إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الْحَقِّ ، وَإِذَا رَضِىَ لَمْ يُدْخِلْهُ رِضَاهُ فِى بَاطِلٍ ، وَإِذَا قَدَرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ[٣] » وفى حديث آخر : « ثَلَاثٌ مَنْ أُوتِيَهُنَّ فَقَدْ أُوتِىَ مِثْلَ مَا أُوتِىَ آلُ دَاوُدَ : الْعَدْلُ فِى الرِّضَا وَالْغَضَبِ ، وَالْقَصْدُ فِى الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، وَخَشْيَةُ اللهِ فِى السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ[٤] » فهذه شروط ذكرها رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم لأولى الإيمان .

فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف فى نفسه ذرة من هذه الشروط ، ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يجحد مالا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة علية وراء الإيمان .

وفى الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : إنما أتخذ لخلتى من لا يفتر عن ذكرى ، ولا يكون له هم غيرى ، ولا يؤثر علىّ شيئا من خلقى ، وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعا ، وإن قطع بالمناشير لم يجد لمس الحديد ألما . فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات ؟ وكل ذلك وراء الحب، والحب وراء كمال الإيمان ، ومقامات الإيمان وتفاوته فى الزيادة والنقصان

(١) ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طلحة ، وعلى هذا فهو معضل. فعلى بن أبى طلحة إنما سمع من التابعين ، ولم أجد له أصلا .

(٢) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة ، وفيه سالم المرادى ، ضعفه ابن معين والنسائى ، ووثقه ابن حبان ، واسم أبيه الواحد .

(٣) الطبرانى فى الصغير بلفظ « ثلاث من أخلاق الإيمان » وإسناده ضعيف .

(٤) غريب بهذا اللفظ ، والمعروف « ثلاث منجيات » فذكرهن بنحوه .

لا حصر له ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام للصدّيق رضى الله عنه : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعْطَاكَ مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِى مِنْ أُمَّتِى ، وَأَعْطَانِى مِثْلَ إِيمَانِ كُلِّ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ[١] » وفى حديث آخر : « إِنَّ لِلهِ تَعَالَى ثَلَاثَمِائَةِ خُلُقٍ ، مَنْ لَقِيَهُ بِخُلُقٍ مِنْهَا مَعَ التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ ، هَلْ فِىَّ مِنْهَا خُلُقٌ ؟ فَقَالَ كُلُّهَا فِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ، وَأَحَبُّهَا إِلَى اللهِ السَّخَاءُ[٢] » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رَأَيْتُ مِيزَانًا دُلِّىَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُضِعْتُ فِى كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمَّتِى فِى كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ بِهِمْ ، وَوُضِعَ أَبُو بَكْرٍ فِى كِفَّةٍ وَجِىءَ بِأُمَّتِى فَوُضِعَتْ فِى كِفَّةٍ فَرَجَحَ بِهِمْ[٣] » . ومع هذا كله فقد كان استغراق رَسُول اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره ، فقال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا ، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ تَعَالَى[٤] » يعنى نفسه .

(١) أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن على مع تقديم وتأخير ، والحارث ضعيف .

(٢) الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس مرفوعا عن الله « خلقت بضعة عشر وثلثمائة خلق ، من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة » ومن حديث ابن عباس « الإسلام ثلثمائة شريعة وثلاث عشرة شريعة » وفيه وفى الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ « الإيمان » وللبزار من حديث عثمان بن عفان « إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة » الحديث ، وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبى بكر وجوابه ، وكلها ضعيفة .

(٣) أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف .

(٤) متفق عليه .

خاتمة الكتاب

بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها

قال سفيان : المحبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال غيره : دوام الذكر . وقال غيره : إيثار المحبوب . وقال بعضهم : كراهية البقاء فى الدنيا ، وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة ، فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها . وقال بعضهم : المحبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه ، وتمتنع الألسن عن عبارته . وقال الجنيد : حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة . وقال : كل محبة تكون بعوض ، فإذا زال العوض زالت المحبة . وقال ذو النون : قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذل لغير الله . وقيل للشبلى رحمه الله : صف لنا العارف والمحب ، فقال : العارف إن تكلم هلك ، والمحب إن سكت هلك . وقال الشبلى رحمه الله :

يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الكَرِيمُ حُبُّكَ بَيْنَ الحَشَا مُقِيمُ
يَارَافِعَ النَّوْمِ عَنْ جُفُونِى أَنْتَ بِمَا مَرَّ بِى عَلِيمُ

ولغيره :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ ذَكَرْتُ إِلْفِى وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكُرُ مَا نَسِيتُ
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا وَلَوْلَا حُسْنُ ظَنِّى مَا حَيِيتُ
فَأَحْيَا بِالْمُنَى وَأَمُوتُ شَوْقًا فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ فَمَا نَفِدَ الشَّرَابُ وَمَا رَوِيتُ
فَلَيْتَ خَيَالَهُ نُصْبٌ لِعَيْنِى فَإِنْ قَصَّرْتُ فى نَظَرِى عَمِيتُ

وقالت رابعة العدوية يوما : من يدلنا على حبيبنا ؟ فقالت خادمة لها : حبيبنا معنا ، ولكن الدنيا قطعتنا عنه .

وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى : أوحى الله إلى عيسى عليه السلام : إنى إذا اطلعت على سر عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ، ملأته من حبى وتوليته بحفظى .

وقيل : تكلم سمنون يوما فى المحبة ، فإذا بطائر نزل بين يديه ، فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات . وقال إبراهيم بن أدهم : إلهى إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندى جناح بعوضة ، فى جنب ما أكرمتنى من محبتك ، وآنستنى بذكرك ، وفرغتنى للتفكر فى عظمتك .

وقال السرى رحمه الله : من أحب الله عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، والأحمق يغدو ويروح فى لاش ، والعاقل عن عيوبه فتاش .

وقيل لرابعة : كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت : والله إنى لأحبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين .

وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال ؟ فقال : الرضا عن الله تعالى والحب له .

وقال أبو يزيد : المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة ، إنما يحب من مولاه مولاه .

وقال الشبلى : الحب دهش فى لذة ، وحيرة فى تعظيم . وقيل المحبة أن تمحو أثرك عنك حتى لا يبقى فيك شىء راجع منك إليك . وقيل المحبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح .

وقال الخواص : المحبة محو الإرادات ، واحتراق جميع الصفات والحاجات . وسئل سهل عن المحبة؟ فقال : عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه .

وقيل : معاملة المحب على أربع منازل : على المحبة والهيبة والحياء والتعظيم . وأفضلها التعظيم والمحبة ، لأن هاتين المنزلتين يبقيان مع أهل الجنة فى الجنة ويرفع عنهم غيرهما .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه ، وإذا أحبه أقبل عليه ، وإذا

وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسره في الدنيا وتروّحه في الآخرة .

وقال عبد الله بن محمد : سمعت امرأة من المتعبدات تقول وهي باكية والدموع على خدها جارية : والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا للقائه ، قال : فقلت لها فعلى ثقة أنت من عملك ؟ قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أفتراه يعذبني وأنا أحبه ؟

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لماتوا شوقا إليّ وتقطعت أوصالهم من محبتي . يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي في المقبلين عَلَيّ ؟ يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عني ، وأرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عني ، وأجلّ ما يكون عندي إذا رجع إليّ .

وقال أبو خالد الصفار : لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له : إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه ، أنتم تعملون على الخوف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق .

وقال الشبلي رحمه الله : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود ذكري للذاكرين ، وجنتي للمطيعين ، وزيارتي للمشتاقين ، وأنا خاصة المحبين .

وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام : يا آدم من أحب حبيبا صدّق قوله ، ومن أنس بحبيبه رضي فعله ، ومن اشتاق إليه جد في مسيره .

وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول : واشوقاه لمن يراني ولا أراه .

وقال الجنيد رحمه الله : بكى يونس عليه السلام حتى عمي ، وقام حتى انحنى ، وصلى حتى أقعد ، وقال : وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته إليك شوقا مني إليك .

وعن عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : « سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عَنْ سُنَّتِهِ ؟ فقَالَ : المَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي ، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي ، وَالْحُبُّ أَسَاسِي ، وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي ، وَذِكْرُ اللهِ أَنِيسِي ، وَالثِّقَةُ كَنْزِي ، وَالْحُزْنُ رَفِيقِي ، وَالْعِلْمُ سِلَاحِي ، وَالصَّبْرُ رِدَائِي ، وَالرِّضَا غَنِيمَتِي ، وَالْعَجْزُ فَخْرِي ، وَالزُّهْدُ حِرْفَتِي ، وَالْيَقِينُ قُوَّتِي ، وَالصِّدْقُ شَفِيعِي ، وَالطَّاعَةُ حُبِّي ، وَالْجِهَادُ خُلُقِي ، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ[1] » .

وقال ذوالنون : سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة ، فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى ، وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة ، وأرواح الغافلين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض المشايخ : رأيت في جبل اللكام رجلا أسمر اللون ضعيف البدن وهو يقفز من حجر إلى حجر ويقول :

الشَّوْقُ وَالْهَوَى صَيَّرَانِي كَمَا تَرَى

ويقال : الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجات .

فهذا القدر كاف في شرح المحبة والأنس والشوق والرضا ، فلنقتصر عليه ، والله الموفق للصواب .

تم كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا

---

(1) ذكره القاضي عياض من حديث علي بن أبي طالب ، ولم أجد له إسنادا .

فهرست الكتاب

الصفحة — الموضوع

الصفحة — الموضوع

بحمد الله تعالى قد تم طبع كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، للإمام أبى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى مصححا بمعرفة لجنة التصحيح بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ؟

القاهرة فى { ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٨٠ هـ
٣٠ أبريل سنة ١٩٦١ م }